المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالى
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
كلية الدعوة والاعلام

الإمـــام مـالك بن أنـس محتســبا

بحث مكمل لدرجـــة المـاجستير في الدعوة والاحتساب

إعـــداد
عبد الرحمـن بن ســليمان بن إبراهـــيم أبانمي

إشـــراف
الدكتور / عبـــد الله الشـــاذلي

١٤٠٥ ـ ١٤٠٦هـ

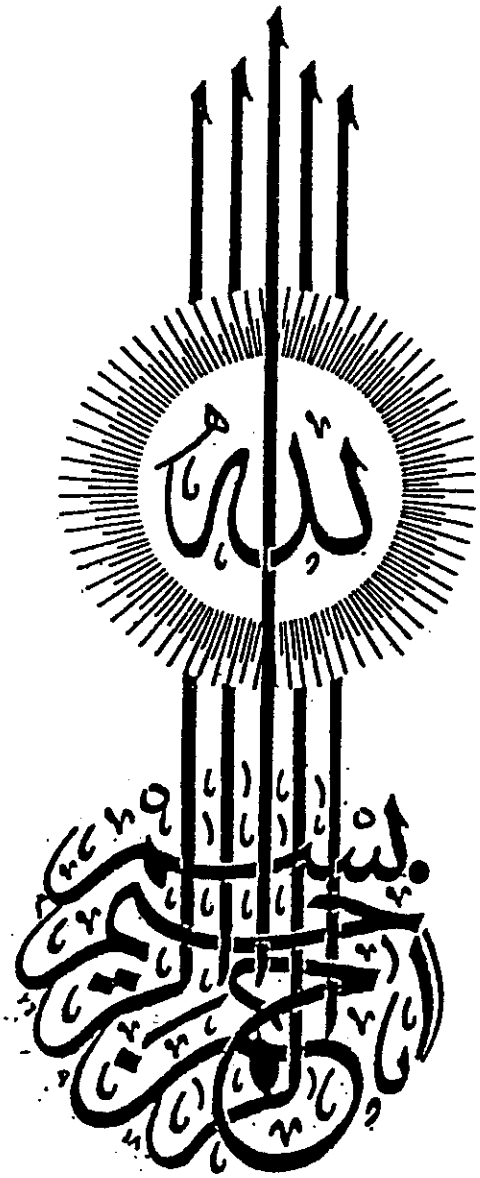
الله
بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبيـــاء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .. أما بعد :

فهذا بحث فى الامام مالك محتسبا ، أسأل الله العلى القدير أن يمكننى من استيفائه والالمام بقدر المستطاع بكل ما تضمنته خطة البحث متحريا فى ذلك الدقة والصواب ما أمكن ذلك . وأسأل الله الغفـــران عن كل تقصير أو زلة قلم من غير قصـــد .

وقد اخترت هذا العنوان موضوعا للبحث وانساقت نفسى اليـــه وذلك لأنـــه :

أولا : يتناول علما من أعلام المسلمين ، وفقيها من فقهائهم نـذر حياته وجل وقته فى سبيل طلب العلم وتعليمه محتسبا ذلك لله غـــير آبه ولا جيّاش فى قول كلمة الحق حريصا كل الحرص على الاقتداء بسنة النبى صلى الله عليه وسلم واتباع الآثار حتى كون من ذلك مذهبا ذاع صيته وكثر أتباعه وتلاميذه فى مشارق الأرض ومغاربها .

ثانيا : ولأنه يتناول احتساب الامام وهو موضوع لم يفرد بكتابتـــه من قبل باحثين بشكل مستقل أو معنون بمواضيع داخل كتاب .

لذلك أردت أن أتناول ذلك وأن أبذل جهدى المتواضع فى استقصاء النصوص التى وردت فى كتب المناقب والسير عن أئمة العلم . ومن ضمنهم امامنا مالك وحاولت أن أكتب عن هذا الموضوع وأفرده وأبرز جميـــع الأمور التى سلكها فى هذا المجال والتى تدل على أن جميع أعمالـــه كلها احتسابا لله تعالـــى .

وقد اتبعت فى ذلك :

أولا : المنهج التاريخى فى الكلام عن حياته ، ونشأته وما تخللها من أعمال له من طلب علم ومؤلفات ونحوها . وذلك بسرد الرويات التى رويت ونقلت عنه وعن غيره فى ذلك . وترجيح ما يحتاج الى ترجيح اذا وجد اختلاف بين هذه الروايات ، وبيان وجهة النظر من جانبى فى ذلك.

ثانيا : المنهج التحليلى :

وذلك بتتبع النصوص الواردة فى أعمال الامام من طلب العلم وتعليمه وجلوسه للدرس والفتيا ودخوله على الخلفاء والولاة واتصاله بالعامة من الناس وتحليلها وبيان دلالتها على احتسابه فى ذلك ومناقشة ذلك وتوضيحه .

وقد قسمت البحث الى ثلاثة فصول - تتكون من الآتى : -

الفصل الأول : حياته ونشأته : تتضمن ما يأتى :

أولا : مولده - حمله فى بطن أمه - مكان ولادته .

ثانيا : نسبه .

ثالثا : نشأته .

رابعا : الحالة السياسية فى عصره .

خامسا : طلبه للعلم .

سادسا : مؤلفاته .

سابعا : وفاته .

الفصل الثانى : فى احتسابه فى العلم والفتيا والقضاء - ويتضمن ما يأتى : -

أولا : الاحتساب فى طلب العلم وتعليمه .

ثانيا : احتسابه فى مجال الافتاء والقضاء .

الفصل الثالث : الاحتساب على الخلفاء والولاة والعامة ويتضمن ما يأتى : -

أولا : الاحتساب على الخلفاء - ويشمل :

أ - الاحتساب بالوعظ والنصح .

ب - الاحتساب بانكار المنكر وازالته .

جـ - الاحتساب بالوصيه والاستشاره والفتيا .

ثانيا : الاحتساب على الولاة والأمراء .

ثالثا : احتسابه على العامة

وبعد هذا ما شمله موضوع البحث أسأل الله العلى القدير أن ينفعنا بما علّمنا وأن يتجاوز عن هفواتنا وأخطائنا وأن يجزى كل من أرشدنا ووجهنا فى البحث حتى ظهر على ما هو عليه الآن هو حسبنا ونعم الوكيل .

والحمد لله رب العالمين ... والله ولى التوفيق .

بسم الله الرحمن الرحيـــم

"الامام مالك محتســبا"

الفصل الأول :

حياته ونشأته .. ويتكون من الآتى : -

مولده - نسبه - نشأته - الحالة السياسية فى عصره - طلبه للعلـم - مؤلفاتـــه - وفاتـــه .

أولا : مولـده :

اختلفت الروايات فى مولد الامام مالك فى أى عام ولد الامـــام على عدة أقوال منها :

- أن مولده سنة ثلاث وتسعين من الهجرة فى خلافة سليمان بـــن عبد الملك بن مروان (١) وهو قول يحيى بن بكير (٢) .
- وقيل سنة أربع وتسعين .
- وقيل سنة تسعين .
- وقيل سنة ست وتسعين .
- وقيل سنة سبع وتسعين .

---

(١) هو سليمان بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية الخليفة أبو أيوب القرشى الأموى بويع بعد أخيه الوليد بن عبد الملك سنة ست وتسعين كان دينا فصيحا مفوها عادلا محبا للغزو عاش تسعا وثلاثين سنة نظر فى أمر الرعية وقسم أموالا عظيمة وكان يستعين بأمر الرعية بعمر بن عبد العزيز وعزل عمال الحجاج قال عنه ابن سيرين يرحمه الله سليمان افتتح خلافته باحياء الصلاة واختتمها باستخلاف عمر بن عبد العزيز كان ينهى الناس عن الغناء توفى شهر صفر لعشر خلون منه سنة تسع وتسعين . (انظر الذهـــبى - سير أعلام النبلاء - جـ ٥ ص ١١١ - ١١٣) .

(٢) هو يحيى بن بكير المصرى مولى بنى مخزوم وقد نسب الى جده روى عن مالـــك والليث وحماد بن زيد وروى عنه ابن معين والبخارى وأبو زرعه وأبو حاتم وخلق كثير مات فى شهر صفر سنة احدى وثلاثين ومائتين رحمه الله . (أنظر السيوطى - طبقات الحفاظ ص ١٨١ ، - الذهبى تذكرة الحفاظ - جـ٢ ص ٤٢ ، دار احيـــاء

- وقيل سنة خمس وتسعين [(١)] .

والراجح من هذه الأقوال والله أعلم أن مولده سنة ثلاث وتسعين في خلافة سليمان بن عبد الملك الأموي عام موت أنس خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك للأسباب الآتيـــة : -

أولا : لشهرة هذا التاريخ من بين الروايات والرواة [(٢)] .

ثانيا : ولترجيحه وتصحيحه من بين الأقوال من بعض المؤرخين فقد جاء في تذكرة الحفاظ ما نصه (وهذا أصح الأقوال) [(٣)] .

ثالثا : ولأنه قد روى عن الامام مالك يرحمه الله أنه قال : (ولـــدت سنة ثلاث وتسعين) [(٤)] .

حمله في بطن أمـــه :

أما عن مدة حمله في بطن أمه فقد وردت في ذلك روايتان هما : -

الأولى : أنها حملت به أمه ثلاث سنين [(٥)] .

---

(١) أنظر - القاضي عياض - ترتيب المدارك جـ١ ص ١١٠ - منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت ، ودار مكتبة الفكر - طرابلس - ليبيا . تحقيق الدكتور : أحمـــد بكير محمود ، والسيوطي - تزيين الممالك - ص ٧ - الطبعة الأولى سنة ١٣٢٥ هـ طبعت بالمطبعة الخيرية لمالكها ومديرها - عمر حسين الخشاب . والذهـــبي تذكرة الحفاظ جـ١ ص ٢١٢ - الطبعة الرابعة سنة ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م طبـــع الهند . والزواوي - مناقب مالك - ص ٤٨ - الطبعة الأولى - سنة ١٣٢٥هـ - طبعت بالمطبعة الخيرية لمالكها ومديرها : عمر حسين الخشاب . وابن فرحون الديباج المذهب ص ١٨ - نشر دار الكتب العلمية - بيروت - والذهبي سير أعلام النبلاء - جـ٨ - ص٤٥ - الطبعة الأولى سنة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م - طبع مؤسســـة الرسالة .

(٢) أنظر - القاضي عياض - ترتيب المدارك جـ١ - ص ١١٠ . وابن فرحون - الديباج المذهب - ص ١٨ ، وابن عبد البر - الانتقاء في فضائل الثلاثة الخلفاء - ص. ١- طبع عام. ١٣٥٠هـ نشر مكتبة القدسي (لصاحبها - حسام الدين القدسي) القاهرة مصـــر .

(٣) الذهبي - تذكرة الحفاظ - جـ١ - ص ٢١٢ .

(٤) السيوطي - تزيين الممالك ص ٧ ، والذهبي - تذكرة الحفاظ جـ١ ص٢١٢ ، الذهبي سير أعلام النبلاء - جـ٨ - ص ٤٥ .

(٥) القاضي عياض - ترتيب المدارك جـ١ ص ١١١ ، ابن فرحون الديباج المذهب ص١٨ ، الذهبي - سير أعلام النبلاء جـ٨ ص ٤٩ ، ابن عبد البر - الانتقاء ص ١٢ ، السيوطي - تزيين الممالك في مناقب مالك - ص ٦ ، الزواوي - مناقب مالك ص ٤٩ .

الثانية : أنها حملت به سنتان[١].

والأشهر من هاتين الروايتين والأرجح منهما هى :

الأولى - والتى جاء فيها أنها حملت به ثلاث سنين وذلك للأسباب الآتيه :-

أولا : لشهرتها وتواترها من بين الرواة بل وصححها بعضهم على أنها هى الأصح ولكثرة من رواها من الرواة بخلاف الثانية[٢].

ثانيا : ولأن بعض كتب المناقب والسير لم تذكر الا هذه الرواية بمفردها فقط دون الأولى مما يدل على رجحانها وشهرتها[٣].

ثالثا : ولأنه قد روى عن الامام نفسه أنه قال بذلك عن مدة حمله فقال :- (قد يكون الحمل ثلاث سنين وقد حمل ببعض الناس ثلاث سنين يعنى نفسه)[٤].

مكان مولده :

ولد الامام مالك رحمه الله بالمدينة المنورة مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم[٥]. وقيل ولد فى مكان يقال له ذى المروه شمالى المدينة المنورة على بعد اثنين وتسعين كيلومتر وهو مكان به عيون ومزارع وبساتين كأنه واحة فى الصحراء[٦]. ثم بعد ذلك ما لبث أن انتقل والده الى المدينة المنورة فاختار العقيق سكنا له[٧].

---

(١) ابن عبدالبر- الانتقاء - ص ١٠ ، ابن فرحون - الديباج المذهب - ص١٨ ، القاضى عياض - ترتيب المدارك جـ١ ص ١١٢ ، والذهبى - سير أعلام النبلاء - جـ٨ ص٤٩ ، والزواوى - مناقب مالك - ص ٤٩ .

(٢) ابن فرحون - الديباج المذهب - ص١٨ ، والقاضى عياض - ترتيب المدارك جـ١ - ص١١١-١١٢ ، وابن عبدالبر - الانتقاء - ص١٢ ، والذهبى - سيرأعلام النبلاء - جـ٨ ص ٤٩ .

(٣) السيوطى - تزيين الممالك فى مناقب مالك - ص ٦ .

(٤) السيوطى - تزيين الممالك - ص ٦ .

(٥) أنظر مصطفى الشكعه - مالك بن أنس - ص ٣ - الطبعة الأولى - ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م . نشر دار الكتاب اللبنانى - بيروت ، محمد أبو زهره - مالك - ص٩ ١ - نشر دار الفكر العربى .

نسبه :

أختلف فى نسب الامام مالك هل هو عربى الأصل ، أم أنه مولى من الموالى ،واذا كان عربيًا هل هو يمنى الأصل والمنشأ ، أم أنه قرشى على ثلاثة أقوال هى : -

الأول : على أنه عربى الأصل يمنى المنشأ والولادة فعلى هذا يكون - نسبه : - هو شيخ الاسلام وحجة الأمة أمام دار الهجرة أبو عبدالله مالك بن أنس بن مالك بن أبى عامر بن عمرو بن الحارث بن غيمان إبن خثيل بن عمرو بن الحارث وهو ذو أصبح بن عوف بن مالك بن زيد بن شداد بن زرعه وهو حمير الأصغر الحميرى ثم الأصبحى المدنى حليف بن تيم من قريش فهم حلفاء عثمان أخى طلحه بن عبيد الله أحد العشرة المبشرين بالجنة (١).

إذا فهو على هذا القول عربى يمنى الأصل والمنشأ وقد اختلف نسب ذى أصبح اختلافا كثيرا ولكن لا خلاف أنه من ولد قحطان (٢).

الثانى : أنه مولى من الموالى فهو مولى لبنى تيم وهو قول ابن اسحاق (٣)(٤) وأيضا روى عن بن شهاب الزهرى (٥) فابن اسحاق يرى أن الامام عربى

---

(١) الذهبى - سير أعلام النبلاء - جـ٨ - ص٤٣-٤٤ ، القاضى عياض - ترتيب المدارك جـ١ - ص١٠٢-١٠٣ ، ١٠٦ ، ابن عبدالبر - الانتقاء - ص ١١ .

(٢) القاضى عياض - ترتيب المدارك - جـ١ - ص١٠٣-١٠٤ .

(٣) ابن اسحاق : هو محمد بن اسحاق بن يسار صاحب المغازى القرشي المطلبي مولاهم أحد الأئمة روى عن أبيه وأبان بن عثمان وأبان بن صالح وجعفر الصادق والزهرى وعطاء ونافع ومكحول وخلق وحدث عنه شعبه ويحيى الأنصارى وهما شيوخه وشريك والحمادان والسفيانان وزياد البكائى وآخرون وثقه بن معين مره وضعفه أخرى وقال ابن المدينى وسط وقال أحمد حسن الحديث وأكثر ماعيب به التدليس مات خمسين أو احدى وخمسين ومائة . (انظر السيوطى - طبقات الحفاظ ص٧٦-٧٧) .

(٤) ابن فرحون - الديباج المذهب - ص ١٧ .

(٥) هو أبوبكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زهرة بن كلاب القرشي الزهرى المدنى الامام ولد سنة خمسين هجرية أحد الأعلام نزل الشام حدث عن بن عمر وسهل بن سعد وأنس بن مالك ومحمود بن الربيع وسعيد بن المسيب وأبى أمامه بن سهل وطبقتهم من صغار الصحابة وكبار التابعين وحدث عنه عقيل ويونس والزبيدى والأوزاعى والليث ومالك وابن أبى ذئب وغيرهم رأى عشرة من الصحابة

بالولاء ، وكذلك ابن شهاب فقد روى عنه أنه قال : حدثنى نافع بن مالك مولى التيميين (١).

وقال عنه بن عبد البر وهذا عندنا لا يصح عن بن شهاب (٢).

فابن شهاب يرى أن مالكاً وأسرته من موالى بنى تيم وذلك أنه روى حديثا ذكر فيه عم مالك وهو أبو سهيل على أنه مولى من الموالى فقد أخرج البخارى (٣) فى صحيحه فى كتاب الصوم عن بن شهاب قال : أخبرنى بن أبى أنس مولى التيميين أن أباه حدثه أنه سمع أبا هريرة رضى الله عنه يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب السماء وغلقت أبواب جهنم وسلسلت الشياطين (٤).

وفى فتح البارى أن أبى سهيل هو : نافع بن مالك بن أبى عامر بن عمرو بن الحارث عم مالك بن أنس بن مالك (٥).

اذا فهو يعتبر الامام مولى لبنى تيم إذ إعتبر عمه كذلك .

الثالث : أنه قرشي وليس يمنى الأصل اذ أن نسبه يلتقى بالرسول صلى الله عليه وسلم عند مرة بن كعب فيصبح نسبه هو : مالك بن أنس بن مالك

= وعشرين ومائة . (انظرالذهبى - تذكرة الحفاظ - جـ١ - ص١٠٨-١٠٩ ، السيوطى - طبقات الحفاظ - ص ٤٢ = ٤٣) .

(١) ابن عبد البر - الانتقاء - ص ١١ .

(٢) ابن عبد البر - الانتقاء - ص ١١ .

(٣) هو أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفى مولاهم الحافظ العالم صاحب الصحيح وإمام هذا الشأن والمعول على صحيحه فى أقطار البلدان روى عن الامام أحمد وابن المدينى وإبراهيم بن المنذر وقتيبه وآدم بن أبى اياس وخلق . وعنه مسلم والترمذى وإبراهيم الحربى وابن أبى الدنيا وأبو حاتم والمحاملى وخلق آخرهم وفاة وورواية للصحيح أبو طلحه منصوربن محمد النسفى روى عنه انه أخرج كتابه الصحيح من زهاء ستمائة ألف حديث وكان لا يضع فى كتابه الصحيح حديثا الا اغتسل قبل ذلك وصلى ركعتين له مؤلفات كثيرة منها الجامع الصحيح - التاريخ الكبير - الأدب المفرد - القراءة خلف الامام كان مولده رحمه الله يوم الجمعة بعد الصلاة لثلاث عشره خلت من شوال سنة أربع وتسعين ومائة ومات ليلة عيد الفطر سنة ست وخمسين ومائتين (أنظرالسيوطى : طبقات الحفاظ ص٢٤٨-٢٤٩) .

(٤) رواه البخارى : كتاب الصوم ص٥٥ ، والدارمى - صوم - ٥٣ ، وفى الموطأ - صيام ٥٩ ، وأحمد

إبن أبى عامر وهو الحارث بن عثمان بن حسل بن عمر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عثمان بن عبد الله من ولد تيم بن مره يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم عند مره بن كعب[١].

وقد قال القاضى عياض عمن قال هذا القول فى نسب الامام وارجاعه الى قريش قد غلط غلطا شنيعا لاخفاء به ولا قاله أحد قبله ولا بعده وخلّط فى هذا تخليطا كثيرا ثم قال فعجبا له كيف اتفق هذا الغلط ومن أين تطرق له[٢].

أما الزهرى فقد قال عنه القاضى فى قوله المتقدم الذى فيه أنه مولى لبنى تيم (وتعرّف الموالى فى لسان العرب بمعنى الحليف والتناصر وغيرهما معروف فلعلّه ما أراد بن شهاب)[٣].

فالقاضى يقول أن الزهرى يريد من نسبته هذه أنه حليف للتيميين وليس مولى لهم .

أما ابن اسحاق وغيره من قال أن الامام مولى لبنى تيم فقد بين القاضى عياض الوهم الذى بسببه قالوا بهذا القول وغلطوا فيه بجعله مولى من الموالى فقال : (أما وهم من زعم أنه مولى تيم فدخل عليه الوهم اذ وجده ينتمى اليهم ويحسب فى عدادهم بسبب حلفه معهم والاّ فنسبهم فى ذى أصبح صحيح ، ذكر ذلك غير واحد من زعماء قريش ونسّابها وغيرهم من أهل العلم ثم عددهم)[٤].

والصحيح من هذه الأقوال وأرجحها أنه عربى الأصل يمنى المنشأ من ذى أصبح قبيلة من اليمن وليس مولى من الموالى كما يقول

---

(١) القاضى عياض - ترتيب المدارك - جـ١ - ص ١٠٤ .
(٢) المرجع السابق جـ١ ص ١٠٤ .
(٣) المرجع السابق جـ١ ص ١٠٤ .
(٤) المرجع السابق جـ١ ص ١٠٤ .

ابن اسحاق [١]. وذلك للأسباب الآتيـــة : -

أولا : أنه نسب أجمع عليه الرواة من أهل العلم ونساب قريش وزعمائهم ولـم يخالف فى ذلك إلاّ ابن إسحاق وبن شهاب على قول أنه يقصد مـن ذلك الحلف والتناصر لا أنه مولـى [٢].

ثانيا : ولأن أبا سهيل بن مالك عم الامام مالك قال : (نحن قوم من ذى أصبح ليس لأحـد علينا ولاء ولا عهد) [٣].

ثالثا : ولأن الربيع بن مالك عم الامام روى عن أبيه مالك أنه قال : (قـــال لى عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمى بن أخى طلحه ونحـن بطريق مكة يا مالك هل لك الى ما دعانا اليه غيرك فأبينا أن يكون دمنا دمك وهدمنا هدمك ما بل يحرصونه فأجبته الى ذلك .) [٤] ممـا يدل على أن نسبته اليهم بالحلف والتناصر لا أنه مولى لهم مما يقطع أنه عربى يمنى الأصل والمنشـأ .

رابعا : ولأن عثمان بن عبيد الله التيمى قال لمن جاءه يشتكى أبى عامر جـد الامام مالك على عثمان بن عبيد الله لما قال له ألا تعذرنى من مولاك قال ليس بمولاى هو رجل من العرب من أهل اليمن [٥].

فهذه الاجابة صريحة فى أن نسب الامام أصله ومنشأه عربى يمنى لا أنـه مولى لهم فقد نفى مولاته لهم لما قيل له بذلك .

خامسا : ولأن الامام مالك رحمه الله لما بلغه قول بن شهاب فى نسبه أنـــه مولى لبنى تيم قال : (ليته لم يروعنا شيئا) [٦].

---

(١) القاضى عياض - ترتيب المدارك - جـ١ - ص ١٠٣ - ١٠٤ .
(٢) أنظر ابن عبد البر - الانتقاء - ص ١٠-١١ ، والقاضى عياض - ترتيب المدارك - جـ١ ص١٠٣-١٠٤ ، ١٠٦ ، وابن فرحون - الديباج المذهب - ص١٧ ، السيوطى - تزيين الممالك - ص ٢-٣ .
(٣) القاضى عياض - ترتيب المدارك - جـ١ - ص ١٠٥ .
(٤) القاضى عياض - ترتيب المدارك - جـ١ - ص ١٠٦ .
(٥) القاضى عياض - ترتيب المدارك - جـ١ - ص ١٠٥ .

مما يدل على أنه غلط بذلك فى جعله فى عداد الموالى لبنى تيم .

سادسا : ولأن الامام مالك رحمه الله بما عرف عنه من التقوى والصلاح والصدق فى العلم والقول وحرصه على اقتفاء سنة النبى صلى الله عليه وسلم والتأسى به لا يمكن أن ينكر حقيقة أصله سواء كان عربيا يمنيا أو قرشيا أو أنه مولى من الموالى ومع ذلك لما بلغه قول بن شهاب من أنه مولى لبنى تيم تمنى أنه لم يرو عنهم شيء من الحديث لأنه غلط فى نسبهم ونسبهم الى غير أصلهم .

أمه :

أما أم الامام فقد ورد فى نسبها روايتان هما : -

الأولى : أنها أزديه فيكون اسمها : هى العاليه بنت شريك بن عبدالرحمن ابن شريك الأزديه[1].

فعلى هذا القول تكون عربية الأصل .

الثانية : أنها مولاة واسمها طليحه مولاة لعبيد الله بن معمر[2]. وعلى هذا القول تكون مولاة .

أما ترجيح أحد الروايتين فلم يتبين فى الحقيقة ما يدل أو يشير الى ترجيح احداهما دون الأخرى الا ما ورد عن محمد بن عمران لما سئل عن أصل الامام قال : (وهو رجل من العرب من حمير من أنفسهم ما بيننا وبينه نسب الا أن أمه مولاة لعمى عثمان بن عبيدالله)[3].

---

(١) السيوطى - تزيين الممالك فى مناقب مالك - ص ٤ .
(٢) السيوطى - تزيين الممالك فى مناقب مالك - ص ٤ .
(٣) القاضى عياض - ترتيب المدارك - جـ١ - ص ١٠٥ .

جد الامام الأعلى :

هو أبو عامر بن عمر جد أبى مالك رحمه الله من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم شهد المغازى كلها مع النبى عليه الصلاة والسلام خلا بدرا [١].

وقيل ان اسمه عمر وكان فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ولم يلقه سمع عثمان بن عفان فهو تابعى مخضرم [٢].

أما ابنه مالك جد الامام مالك بن أنس :

فهو يكنى أبو أنس من كبار التابعين روى عن عمر وطلحه وعائشة وأبى هريرة وحسان بن ثابت رضى الله عنهم وهو أحد الأربعة الذين حملوا عثمان بن عفان رضى الله عنه ليلا الى قبره وغسلوه وكفنوه وكان خدنا لطلحه يروى عنه بنوه أنس وأبو سهيل نافع والربيع وقيل أن عثمان بن عفان رضى الله عنه أغزاه أفريقية ففتحها وروى أيضا أنه كان ممن يكتب المصاحف حين جمع عثمان رضى الله عنه المصاحب وكان عمر بن عبد العزيز يستشيره مات سنة اثنتى عشرة ومائة [٣].

له أربعة أولاد هم :-

أنس أبو مالك الامام ، وأبى سهيل نافع ، والربيع ،وأويس جد أبى أويس أبى اسماعيل وأبى بكر [٤].

أما أبو مالك الامام :

فهو أنس بن مالك بن أبى عامر روى أنه كان مقعدا وكان له قصر بالحرف يعرف بقصر المقعد وكان يعيش من صنعة النبل قيل ان ابنه مالك

---

(١) القاضى عياض - ترتيب المدارك - جـ١ - ص ١٠٧ .
(٢) السيوطى - تزيين الممالك - ص ٤ .
(٣) ابن فرحون - الديباج المذهب - ص ١٧ .

روى عنه حديث الغسل واللباس [١].

نشـــأته :

نشأ الامام مالك رحمه الله منذ صغره فى بيت علم اشتغل بعلـــم الأثر والحديث وفى بيئة كلها للعلم والحديث والأثر أما بيته فقد اشتغـــل بعلم الأثر ورواية الأحاديث واستطلاع أخبار الصحابة رضوان الله تعالـــى عليهم فبيته كله للعلم ورواية الآثار وإذا تطلعنا الى آل مالك لوجدنـــا أكثرهم ان لم نقل كلهم من أصحاب هذا الشأن أى العلم ورواية الآثـــار عن الصحابة وكبار التابعين فجد الامام مالك أبو أنس من كبار التابعين وقـــد أكثر من الرواية عن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم من أمثال عمر بن الخطاب وطلحه وعائشة وأبى هريرة وغيرهم من الصحابة رضوان الله تعالى عليهـــم ويعد رحمه الله من أفاضل الناس ومن علمائهم ولا غرو أن يكون كذلك اذا هو استقى من معين من سبقه من أفاضل الصحابة الذين مر ذكرهم واذا هـــو أخلص النية فى ذلك واذا تطرقنا الى أعمام الامام مالك نجدهم كذلك مـــن أصحاب هذا الشأن فنراهم يروون عن أبيهم مالك بن أبى عامر وأكثرهـــم عناية بهذا الشأن هو أبو سهيل نافع بن مالك فقد خرج أهل الصحيـــح البخارى ومسلم ومن بعدهم عن مالك بن أبى عامر وأبى سهيل وابنه كثـــيرا مما يدل على إكثاره وعنايته بالعلم ورواية الآثار واستطلاع أخبار الصحابـــة والتابعين وكان للامام مالك أخ فى سن بن شهاب كان من أصحاب هـــذا الشأن أيضا مما يدل على أن الأسرة جميعها الجد والأعمام والاخوان كلهم أهل بيت علم إذاً الامام نشأ فى بيت إشتهر بعلم الأثر ورواية الأحاديـــث فطبيعى إذاً أن يتجه الإمام إلى ذلك وأن يغرس فى نفسه حب العلـــم وأن ينشأ على ذلك إذا كان الجو المحيط من حوله كله مشتغلا بذلك [٢].

---

(١) القاضى عياض - ترتيب المدارك - جـ١ - ص ١٠٨ .

ولا ننسى فى ذلك دور التوجيه من الأب والأم فى ذلك ، فقد وردت فى ذلك نصوص تثبت دور الأب والأم فى توجيه مالك الغلام الى العلم . مما يدل على أن هذين الأبوين من أصحاب هذا الشأن أوأنهما إن لم يكونا من أصحاب ذلك أنهما يحثان عليه ويرغبون اليه فى أن يكون ابنهم من أصحاب ذلك فقد جاء فى ترتيب المدارك ما نصه : -

(قال مالك كان لى أخ فى سن بن شهاب فألقى أبى يوما علينا مسألة فأصاب أخى وأخطأت فقال لى أبى الهتك الحمام عن طلب العلم)[1].

فهذا النص يدل على مدى اعتناء الأب بالعلم وأن لديه شيء من ذلك ومدى حرصه على إبنه مالك فى توجيهه لذلك فنراه غضب عليه لما أخطأ فى جوابه وعلل له ذلك بأن سبب ذلك هو لهوه ولعبه وافتتانه بالحمام .

أما النص الثانى - يقول الامام عن نفسه : -

(نشأت وأنا غلام فأعجبنى الأخذ عن المغنيين فقالت أمى : يا بنى إن المغنى اذا كان قبيح الوجه لم يلتفت الى غنائه فدع الغناء واطلب الفقه فتركت المغنين وتبعت الفقهاء فبلغ الله بى ما ترى)[2].

فهذا النص أبلغ فى التعبير على ما تتمتع به هذه الأم من عقل راجح وذكاء حاد وبصيرة نافذة وعلى حبها ورغبتها فى العلم وتوجيه ابنها الى ذلك فهى لما ذكرت قبح الوجه لم تقصد أن إبنها قبيح الوجه فعلا كلا إنه على العكس من ذلك من جمال الوجه وحسنه كما وصفه الرواة[3].

بل أرادت بذلك أن تقبح له من شأن الغناء فذكرت قبح الوجه .

---

(١) القاضى عياض - ترتيب المدارك - جـ١ - ص ١١٩-١٢٠ .

(٢) مصطفى الشكعه - مالك بن أنس - ص ٧ - الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م نشر دار الكتاب اللبنانى - بيروت - لبنان - نقلا عن سرح العيون ص ١٨١ .

(٣) القاضى عياض - ترتيب المدارك - جـ١ - ص ١١٢ .

بل لم تكتف بذلك بل عمته وأمرته بالذهاب الى ربيعة الرأى للتعلم من أدبه قبل علمه[١].

هكذا كان الامام رحمه الله عاش فى طفولته وصغره فى بيت كله للعلم والأثر وروايـة الأخبار والأحاديث فتأثر بذلك وكان له الأثر الواضح فـى طلبه لذلك وصبره عليه .

أما البيئة التى نشأ بها الامام :

فهى المدينة المنورة مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ناصرة الرسول ومهاجره ومأوى المهاجرين ومهبط الوحى الالهى على رسوله الكريم ومعقد الحكم الاسلامى الأول وموطن الشرع ومبعث النور وقبة الاسلام ودار الايمان وأرض الهجرة ومبدأ الحلال والحرام وقصبة الاسلام فى عهد أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضى الله عنهم ، فهى بيئة توعز بالعرفان وتنمى المواهب فيها جل الصحابة الذين تربوا فى مدرسة الرسول عليه الصلاة والسلام فصقلتهم وهذبتهم ومنها تخرجوا ناهلين من الزاد الالهى ما يغذى القلوب وينمى العقول ناشرين ذلك فى أقطار المعمورة بين المسلمين فهم أقرب الناس الى السنة والى علمهم وعملهم ترجع الأحكام وذلك حين انتشرت الفتوحات الاسلامية شرقا وغربا واستنبطت الأحكام من هدى القرآن واختلفه العلماء فى الفتاوى والأحكام فالمرجع إليها فى ذلك الشأن فهى موئل الشريعة ومرجع العلماء سواء كانوا من الصحابة أو من التابعين حتى أن بعضهم إذا أفتى بشىء ورجع الى المدينة فوجد الأمر على غير ما قال فاذا رجع لم يحط راحلته ولم يدخل الى بيته حتى يرجع الى ذلك الرجل فيخبره بذلك ناقضا فتواه السابقة[٢]

---

(١) القاضى عياض - ترتيب المدارك - جـ١ - ص ١١٩ .

(٢) انظر القاضى عياض - ترتيب المدارك - جـ١ - ص ٦٠ - ٦١ - ٦٢ .

وكان عمر بن عبدالعزيز رحمه الله يكتب إلى الأمصار يعلمهم السنن والفقه ويكتب إلى المدينة يسألهم عما مضى ويعلمون بما عندهم[1].

هكذا كانت المدينة فى وقت نشأة الامام لها مكانتها العلمية وفى أرجاء مسجدها المدرسة الأولى تنتشر حلقات العلم والذكر من كبار التابعين من أمثال الفقهاء السبعة وغيرهم ويزدحم الناس فى هذه الحلقات ويأتون من شتى أصقاع الأرض لينهلوا من مهبط الوحى ومهد السنن وموئل الشريعة هكذا كانت مهد السن وموطن الفتاوى ومأوى رجال العلم إجتمع بها الرعيل الأول من الصحابة ثم جاء من بعدهم تلاميذهم ثم من بعدهم تلاميذهم الى أن جاء الامام فأدرك هذه التركه العلمية فشدا منها ونهل من معينها وتأثر بها ونشأته النشأة الصالحة فنمت مواهبه فى ظل سمائها وجنى ثمرتها واستنار من علمائها .

اذا فى ظل هاتين البيئتين نشأ الامام وترعرع ينهل من موارد العلم فصقلته وجعلت منه إماماً فاق أقرانه فى العلم والفتيا يشار إليه بالبنان وأجمعت الأمة على إمامته وفضله وأثنى عليه العلماء وتزاحم الناس على حلقاته للإستفادة منه .

الحالة السياسية فى عصره :

ولد الامام مالك رحمه الله كما أسلفنا فى خلافة سليمان بن عبدالملك الأموى وكانت وفاته كما سنبين بعد فى عهد هارون الرشيد العباسى .[2]

---

(١) المرجع السابق جـ١ ص ٦٢ .

(٢) هو الخليفة أبو جعفر هارون بن المهدى محمد بن المنصور أبى جعفر عبدالله بن محمد بن على بن عبدالله بن عباس الهاشمى العباسى استخلف بعهد معقود له بعد الهادى من أبيهما المهدى فى سنة سبعين ومائة بعد الهادى مولده بالرى سنة ثمان وأربعين ومائة روى عن أبيه وجده - ومبارك بن فضاله وروى عنه إبنه المأمون كان من أنبل الخلفاء وأحشم الملوك ذا حج وجهاد وغزو وشجاعة ورأى - وأمه أم ولد إسمها الخيزران كان أبيض طويلا جميلا وسيما الى السمن ذا فصاحة وعلم وبصر بأعباء الخلافة له نظر جيد فى الأدب

فهو بذلك قد عاصر دولة بنى مروان فى عنفوان شبابها وشاهد تداعى الدولة الأموية وقيام دولة بنى العباس على أنقاضها ثم أنه رأى مغالبة أبى جعفر المنصور[١] لبنى عمه أولاد على بن أبى طالب رضى الله عنه واستقرار الأمر له من بعد الغلب عليهم وقتله لهم[٢] .

ورأى بعد ذلك موقف المهدى من الزنادقة فى العراق واستنصاره بالعلماء عليهم للقضاء على عقيدتهم الهدامة فى الوقت الذى كان يقضى فيه على جيوشهم بقيادة زعيمهم المقنّع الخراسانى[٣] فى ميدان القتال[٤] .

ثم رأى أمر الدولة وقد إستقر فى عهد هارون الرشيد ورأى الحضارة العباسية قد امتزجت فيها الحضارات المختلفة مابين فارسية ورومانية وهندية وهضمتها المبادىء الاسلامية وامتزجت بها .

فحياته فى العهد الأموى تمثل فترة تكوين عقله وتفكيره وآرائه خلال

---

(١) هو أبو جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشى الهاشمى أمير المؤمنين ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هو ثانى خلفاء بنى العباس وأولهم أخوه أبو العباس السفاح . تولى الخلافة بعد موت أخيه وهو ابن احدى وأربعين سنة مولده فى ذى الحجة سنة خمس وتسعين من الهجرة بنى مدينة بغداد واتخذها منزلا ، توفى حاجا لسبع خلون وقيل ست من ذى الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة عند بئر ميمون ودفن بأعلا مكة وكانت خلافته اثنتين وعشرين سنة الاّ أياما (النووى - تهذيب الأسماء واللغات - ص ٢٠٣-٢٠٤) .

(٢) ابن الأثير - الكامل فى التاريخ جـ٥ ص ٥٢٣-٥٢٧ ، طبع ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م ، دار بيروت للطباعة ، ودار صادر للطباعة والنشر .

(٣) هو رجل من أهل خراسان يسمى حكيما أعور قصيرا من أهل مرو ظهر بخراسان وكان يتخذ وجها من ذهب فجعله على وجهه لئلا يرى قسمى المقنّع إدعى الالوهية وكان يقول أن الله خلق آدم فتحول فى صورته ثم فى صورة نوح وهكذا هلم جرا الى أبى مسلم الخراسانى ثم تحول الى هاشم وهاشم فى دعواه هو المقنّع ويقول بالتناسخ تابعه خلق من ضلال الناس وكانوا يسجدون له من أى النواحى كانو ، قتل سنة احدى وستين ومائة لما حاصره جيش المهدى بقيادة معاذ بن مسلم ، وفى مقدمته سعيد الخرشى حيث أيقن بالهلاك فشرب السم وأسقاه أهله وأتباعه وأحرق نفسه بالنار . (انظر ابن الأثير - الكامل - جـ٦ - ص ٣٨ - ٣٩ - ٤٩ - ٥٠) .

(٤) ابن الأثير - الكامل فى التاريخ - جـ٦ - ص ٣٨ - ٣٩ .

أربعين سنة وتمثل حياته بعد أن بلغ أشده فى العهد العباسى فـــترة إنتاجه والإستفادة من علمه وتبادل ثمرات الفكر مع الصحاب وتكوين التلاميـذ

ومع أن الامام رحمه الله قد أدرك الخلافة الأموية وقد خمدت جذوة الفتن واستقر الأمن وخيّم الهدوء والاستقرار الاّ أنه علم كثيرا من أنبـــاء الفتن التى وقعت ونمت اليه عن طريق الأخبار بل انه عاين بعض ذلـــك بنفسه وشاهد فعل الخوارج وتسلقهم لسور المدينة واثارة الفزع بين النـــاس واراقتهم للدماء وعاثوا فى الأرض الفساد بقيادة أميرهم أبى حمزة الخارجى (١) (٢).

فجره ذلك الى النفور منهم وبغض الى نفسه كل خروج على الحكـام ولهذا كان يرى اصلاح الرعية أصلا لاصلاح الحكام ونزع بطبيعته الهادئـــة إلى حياة الاستقرار ولم يقف من بنى أمية موقف بعض العلماء الآخرين الذين أنكروا عليهم جانبا من أعمالهم كما أنه رحمه الله ربما أنكر الوقائع الداميـــة التى وقعت فى بداية الحكم العباسى وسخطها ولكنه سرعان ما عاد إليـه هـدوءه بعد إستقرار الأمور واستتباب الأمن ووجد فى خلفاء بنى العبـــاس حرصهم الشديد بمجالسة العلماء والتقرب اليهم وحرصهم على الانتفاع بعلمهم والاستماع لنصحهم رغبة فى الاتصال به والاستماع لنصحه ومشورتـه (٣).

---

(١) هو زعيم طائفة من الخوارج خرج على بنى مروان الخليفة الأموى وجـــاء بجيشه الى المدينة ودعاهم الى أن يتركوه وشأنه لقتل عامل الخليفـــة وأتباعه فأبوا فوقعت بينهم وبينه موقعة فى قديد لسبع بقين من صفـــر فى سنة ثلاثين ومائة فانهزم أهل المدينة وقتل منهم خلق كثير ثم دخـــل المدينة وقتل منهم خلقا كثيرا ثم رقى المنبر وخطب فيهم ، قتل فـــى وادى القرى لما التقى جيشه وجيش الخليفة الأموى بقيادة عبد الملك بـــن محمد بن عطيه السعدى سعد هوازن فانهزم جيشه وقتل .
(انظر ابن الأثير - الكامل - جـ٥ - ص ٣٨٨-٣٩١) .

(٢) انظر بن الأثير - الكامل فى التاريخ - جـ٥ - ٣٨٩ .

(٣) انظر مناع القطان - التشريع والفقه فى الاسلام - الطبعة الثانية عام ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م - مؤسسة الرسالة - بيروت - لبنان .

طلبه العلـــم :

طلب الامام مالك العلم وهو حدث صغير السن[١] وتأهب لتلقيه فبـدأ مبكرا إذ يروى أنه رئى فى حلقة ربيعة وفى أذنه شنف[٢].

وقد جلس رحمه الله الى شيوخ كثيرين وأخذ عنهم العلم والحديث فقد ورد أنه أخذ عن تسعمائة شيخ[٣].

ولكنه رحمه الله لازم شيوخا وخصهم أكثر من غيرهم فى المجالسة بل وتأثر بهم وأخذ عنهم كثيرا وأسهموا فى تكوينه ونضجه فى هذا السبيل بل ويعتبر تلميذا لهم لكونه أطال ملازمته لهم وأكثر عنهم وقد ورد ذكرهم كثيرا على لسانه وأكثر الكلام عنهم والثناء عليهم بل واقتدى بهم وتأسى بهم واقتفى أثرهم وهم :-

ربيعة بن أبى عبدالرحمن المعروف بربيعة الرأى .

وأبو بكر عبدالله بن يزيد المعروف بابن هرمز ، وابن شهاب الزهرى ، ونافع مولى ابن عمر - وابن المنكدر عبدالله بن ذكوان ، وجعفر الصادق ، ويحيى بن سعيد الأنصارى من أهل المدينة[٤] .

وسنتكلم عن ملازمته لهم وما أخذه عنهم وتأسيه بهم . فنبدأ أولا بشيخه الأول وهو ربيعة بن عبدالرحمن المعروف بربيعة الرأى .

أولا : ربيعة الرأى : هو ربيعه بن أبى عبدالرحمن فروخ الامام أبوعثمان التيمى المدنى الفقيه مولى آل المنكدر كان إماما حافظا فقيهاً مجتهداً بصيراً بالرأى ، ولذلك يقال له ربيعة الرأى حافظا للفقه والحديث

---

(١) الذهبى - سيرة أعلام النبلاء - جـ٨ ص ٤٥ .
(٢) ابن فرحون - الديباج المذهب - ص ٢٠ .
(٣) أمين الخولى - مالك بن أنس - ص ٦٣ - نقلا عن التنوير للمقدسي ص ٤٢ .
(٤) أنظر - القاضى عياض - ترتيب المدارك - جـ١ - ص١١٩-١٢٥ ، وابن فرحون - الديباج المذهب - ص ٢٠-٢١ ، الذهبى - سير أعلام النبلاء - جـ١ ص ٤٥-٤٧ .

بـه تفقـه مالك رحمه اللـه [١] .

هو أول شيخ أخذ عنه الامام العلم وجالسه وبه إبتدأ الإمام بتوجيه من أمه التى سبق الكلام عن دورها فى توجيهه الى ذلك وحثها لـه فى ذلك فقد ورد فى ذلك : - قال مالـك :

(قلت لأمى أذهب فأكتب العلم ؟ فقالت تعال فالبس ثياب العلـم فألبستنى ثيابًا مشـمرة ووضعت الطويلة على رأسى وعممتـنى فوقها ثم قالت : إذهب فاكتب الآن) [٢] .

إن هذه الأم لم تكتف بتوجيه إبنها مالك لطلب العلم فحسب بـل أمرته بلبس ثياب العلم والتهيأ له بأحسن ما يكون عليه طالب العلم مـن حسن الهيئة وجمالها لأن الغرض الذى سيطلبه يتطلب ذلك حتى يغـرس فى نفسه الجد والصبر والمثابـرة فى تحصيله ثم أنها أمرته بالذهاب الـى ربيعة الرأى للتعلم من أدبه قبل علمه وهذا يدل على أن هذه الأم علـى مكانة من المعرفة بصيرة بالأمور عارفة بأسـرارها . ولذلك أمرته أن يتعلـم ويكتسب من الأدب أولا قبل بدءه فى طلب العلم وذلك لأن الأدب والعلم توءمان لا ينفصلان فلا خير فى علم بلا أدب وأخلاق ولأن طالب العلـم اذا لم يتحلى بالأخلاق والأدب لا يتمكن من تحصيل مطلوبه ، ولذلـك روى أنه قـال :

(كانت أمى تعممنى وتقول لى اذهب الى ربيعة فتعلم من أدبـه قبل علمـه) [٣] .

أخذ عنه الامام الحديث وفقه الرأى فقد روى عنه الامام من الأحاديث فى الموطأ خمسة أحاديـث [٤] .

---

(١) الذهبى - تذكرة الحفاظ - جـ١ ص١٥٧-١٥٨ ، دار احياء التراث العربى - بيروت - لبنان .

(٢) القاضى عياض - ترتيب المدارك - جـ١ - ص١١٩ .

كما أخذ عنه فقه الأثر معقول المعنى متجها إلى البناء عليه لا الى الوقوف عنده فلم يكن فقه الرأى الذى أخذه عنه وتلقاه منه القياس وعلله ومناطاته من كل الوجوه بل كان أساسه التوفيق بين النصوص المختلفة ومصالح الناس وما يكون فيه النفع لمجموعهم ولذلك سئل مالك رحمه الله عن ذلك :

(هل كنتم تتقايسون فى مجلس ربيعة ويكسر بعضكم على بعض فقال : لا والله)[1].

إذاً فيكون أخذ منه الامام الحديث وفقه الرأى معقول المعنى كما تعلم منه الأدب قبل ذلك رحمهما الله تعالى .

ثانيا : أما شيخه الثانى فهو : ابن هرمز :

وهو عبدالله بن يزيد بن هرمز أبو بكر مولى لبنى ليث أحد فقهاء المدينة[2].

روى عنه الامام مالك وأخذ عنه وجالسه بل خصه بالملازمة دون غيره . فقد إنتقل إليه مالك بعد أن جالس ربيعه قبله فجلس إليه ولازمه ولم يخلطه بغيره فاختصه بالملازمة فقد ورد فى ذلك أنه قال :

(كان لى أخ فى سن ابن شهاب فألقى أبى يوما علينا مسألة فأصاب أخى وأخطأت ، فقال لى أبى ألهتك الحمام عن طلب العلم فغضب وانقطعت إلى إبن هرمز سبع سنين وفى رواية ثمان سنين لم أخلطه بغيره)[3].

وكان من شدة ملازمته له وحرصه على ذلك من أجل تحصيل العلم والانتفاع بما عنده من علم أنه كان يجعل فى كفه تمرا ويناوله صبيانه

---

(١) القاضى عياض - ترتيب المدارك - جـ١ - ص ١٢٣ .
(٢) الرازى - الجرح والتعديل - جـ٥ - ص ١٩٩ - الطبعة الأولى سنة ١٣٧٢هـ - ١٩٥٣م - طبع الهند - نشر دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .
(٣) القاضى عياض - ترتيب المدارك - جـ١ ص ١٢٠ .

ذلك من أجل أن يجيبوا من سألهم عن شيخه ابن هرمز أن يقولوا إنه مشغول وذلك من شدة حرصه فى ملازمته ومن أجل أن يمكث معه قدراً كثيرا من الوقت للإنتفاع بما عنده من العلم ولذلك ورد عنه أنه قال :

(كنت أجعل فى كفى تمرا وأناوله صبيانه وأقول لهم ان سألكم أحد عن الشيخ فقولو مشغول)[1].

كما قد ورد أنه لازمه مدة أطول من ذلك فقد جاء أنه قال :

(جالست ابن هرمز ثلاث عشرة سنة ويروى ست عشرة سنة فى علم لم أبثه لأحد من الناس)[2].

وروى أيضا أنه جالسه ثلاثين سنة فقد جاء عنه أنه قال :

(ان كان الرجل ليختلف للرجل ثلاثين سنة يتعلم منه فكنا نظن أنه يريد نفسه مع إبن هرمز)[3].

فيتبين لنا من هذه الروايات أنه لازم إبن هرمز مدد طويلة اختلفت فى مقدارها ولعلنا نوفق بين هذه الروايات بما يأتى : -

أولا : أن الملازمة الأولى والتى مدتها سبع سنين وفى رواية ثمان يقصد بها الملازمة التامة التى لم يخلطه بغيره بمعنى أنه إقتصر فى طلب العلم على يديه وخصه بالمجالسة والملازمة لا يخلطه بغيره من العلماء ولا يأخذ العلم عن أحد سواه ولذلك نراه صرح بأنه لم يخلطه بغيره .

ثانيا : أما الملازمة الثانية والتى مدتها ثلاث عشرة سنة وفى رواية ست عشرة سنة فهو كان يلازمه ملازمة غير تامة بمعنى أنه كان يخلطه بغيره من العلماء فى الجلوس لهم والأخذ عنهم أى لا يلازمه ملازمة إختصاص

---

(١) ابن فرحون - الديباج المذهب - ص ٢٠ .
(٢) القاضى عياض - ترتيب المدارك - جـ١ - ص ٩٠ .
(٣) ابن فرحون - الديباج المذهب - ص ٢٠ .

كالأولى وإن كان يلازمه فيها أكثر من ملازمته لغيره من العلماء .

ثالثا : أما المدة الثالثة وهو قوله ان كان الرجل ليختلف للرجل ثلاثين سنة يتعلم منه فكنا نظن أنه يريد نفسه مع إبن هرمز فأعتقد من وجهة نظرى أنها تتعارض مع نضوجه فى العلم مبكرا فلا أعتقد أنه ظل طالب علم يختلف تلميذاً طول هذه المدة فقد ورد أنه جلس للعلم والفتيا وهو إبن سبع عشرة سنة[1] ولأنه إذا جلس لذلك فلم يجلس من تلقاء نفسه فقد ورد أنه لم يجلس للعلم والاجابة على الفتاوى إلا بعد أن سأل من هو أعلم منه من شيوخه هل هو أهلا لذلك ويرونه موضعاً لذلك وقال : ولم أجلس حتى شهد لى سبعون شيخا من أهل العلم أنى لموضع لذلك[2].

ولأنه إذا جلس فقد أصبح فى مكانة علمية مرتفعة وحصيلة وافره من العلم فلا يكون بعد ذلك إذا حصل من المجالسه بينه وبين غيره من العلماء الا على سبيل المناظره فى المسائل العلمية ليدلى كل برأيه ومعرفته فى المسائل لمعرفة الحق والصواب فى ذلك كما حصل له مع أبى يوسف صاحب أبى حنيفه وغيره[3].

اذا فعلى هذا لا يمكن أن تقبل هذه الرواية على أنه طالب علم لما تقدم ذكره والله أعلم .

ونرى كذلك من شدة حرص الامام على طلبه العلم وشدة ملازمته لشيخه إبن هرمز نراه يتخذ تبانا محشوا للجلوس عليه عند باب ابن هرمز يتقى به برد حجر هناك وقيل بل من برد صحن المسجد وفيه كان يجلس إبن هرمز[4].

---

(١) القاضى عياض - ترتيب المدارك - جـ١ - ص ١٢٥ .
(٢) الذهبى - سير أعلام النبلاء جـ٨ ص ٥٦ ، القاضى عياض - ترتيب المدارك - جـ١ - ص ١٢٦ .

ولا شك أن حرص مالك على هذه الملازمه لشيخه ومداومته على ذلك أن يكون لها وقع لدى شيخه وذلك بأن أثنى عليه وشهد له بأنه أعلم الناس وذلك لما طلب من جاريته أن تنظر من بالباب فلم تر إلا مالكاً فرجعت فقالت له ما ثم الا ذاك الأشقر تعنى مالك فقال لها دعيه فذلك عالم الناس[1].

وكان ابن هرمز قد استحلف مالك ألا يذكر اسمه فى حديث[2]. وذلك خشية أن يدخله الوهم فى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وأن ينقل عنه ذلك الوهم .

ولعل ذلك الوهم بسبب ما بلغه ابن هرمز من العمر حتى وصل الى سن دخل فيه ضعف فى بدنه وأنه كان يخشى أن يؤثر ذلك الضعف فى عقله ولذلك نراه يخص مالك وصاحبه عبدالعزيز بن أبى سلمه[3] بكثرة المحادثات والاجابة على الأسئلة فى العلم والحديث عن غيرهما فقد قيل له فى ذلك :

(نسألك فلا تجيبنا ويسألك مالك وعبدالعزيز فتجيبهما فقال : دخل على فى بدنى ضعف ولا آمن أن يكون قد دخل على فى عقلى مثل ذلك وأنتم اذا سألتمونى عن الشىء فأجبتكم قبلتموه ومالك وعبدالعزيز ينظران فيه ، فان كان صوابا قبلاه وان كان غيره تركاه)[4].

فمالك رحمه الله مع ملازمته لشيخه إبن هرمز وحرصه الشديد على الأخذ منه وتأثره حظاه الا أنه مع ذلك كان ينظر فيما يتلقاه عن شيخه من الأحاديث والأخبار المأثوره ويتفحصها وينقدها نقد الصيرفى الماهر

---

(١) القاضى عياض - ترتيب المدارك - جـ١ - ص ١٢٠ .

(٢) المرجع السابق - جـ١ - ص ١٢٠ .

(٣) هو عبدالعزيز بن عبدالله بن ابى سلمة الماجشون التيمى المدنى أحد الاعلام روى عن أبيه والزهرى وابن المتكدر وخلق وعنه ابنه عبدالملك وابراهيم بن طهمان وابن مهدى وخلق قال فيه ابن سعد كان ثقة كثير الحديث مات ببغداد سنة أربع وستين ومائة . (انظر السيوطى - طبقات الحفاظ - ص٩٤) .

فما كان منها صوابا قبله وما كان منها غير ذلك تركه ، ولا شك أن شيخه يحسن ذلك فيه بدليل تخصيصه هو وصاحبه عبدالعزيز بالاجابة دون غيرهما من أجل هذا السبب .

أما العلوم التى تلقاها من شيخه ابن هرمز فهى :

تلقى منه الحديث والفقه فقد روى عنه فى الموطأ خمسة أحاديث[1] وهذا العدد هو الذى ثبت صحته فى الموطأ بعد تمحيصه من الامام عام بعد عام[2] .

وكذلك تلقى عنه الرد على أهل الأهواء ولذلك أثر عنه أنه قال : (وكان من أعلم الناس بالرد على أهل الأهواء وبما اختلف فيه الناس)[3] .

وقد تقدم أنه أخذ عنه علم لم يبثه بين الناس ولعله يريد ما يتصل فى الرد على أهل الأهواء وبما اختلف فيه الناس وهو الفتيا .

وفى قول الامام فى علم لم أبثه لأحد من الناس كأنه رحمه الله يقسم العلم الى قسمين :-

الأول : علم يلقى على الملأ والجمهور لا يختص به أحد دون غيره وكل العقول تقوى على قبوله واستساغته والانتفاع به اذ لا ضرر فيه على أحد وذلك مثل الحديث والفقه وغيره من علوم الدين .

الثانى : علم لا يصح أن يعرفه الا خاصة الناس دون عامتهم لأن ضرره على النفوس أكثر من نفعه وذلك كالرد على أهل الأهواء ، فانه ربما يعسر فهمه على بعض العقول وربما يفهمونه على غير وجهه فيكون الضرر حيث كان يرجى النفع ولذلك نرى الامام مالك يخفى ذلك العلم ويكتمه ولم يبينه للناس من أجل ذلك .

---

(١) الذهبى - سير أعلام النبلاء - جـ٨ - ص ٤٥ .
(٢) السيوطى - تزيين الممالك فى مناقب مالك - ص ٤٢-٤٣ .

ثالثا : ومن شيوخه الذين أخذ عنهم وتأثر بهم :

نافع مولى ابن عمر وهو : أبوعبدالله العدوى المدنى حدث عن مولاه ابن عمر وعن عائشة وأبى هريرة وأبى لبابه وطائفة قال عنه البخارى أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر مات سنة سبع عشرة ومائة[1]. أخذ عنه مالك الحديث وفتاوى ابن عمر فقد روى عنه الامام فى الموطأ عدة أحاديث بلغ مجموعها خمسة وثمانون حديثا[2].

وكان نافع رحمه الله من أعلم التابعين لفتاوى ابن عمر ومن أدقهم رواية للحديث لكونه ملازما لابن عمر رضى الله عنهما فأخذ عنه الامام فتاوى ابن عمر فقد ورد فى ذلك أنه قال :

(كنت آتى نافعا نصف النهار وما تظلنى الشجر من الشمس أتحين خروجه فإذا خرج أدعه ساعة كأنى لم أره ثم أتعرض له فأسلم عليه وأدعه حتى إذا دخل البلاط أقول له كيف قال ابن عمر فى كذا وكذا فيجيبنى ثم أحبس عنه وكان فيه حده)[3].

فهذه الرواية تدل على أن مالك كان يأخذ من نافع فتاوى ابن عمر وفقهه وأنه يتحين خروجه ويترقبه حتى ولو كان الوقت غير مناسب أو مهيأ لأن يمكث الوقت الطويل من أجل أن يتحين خروجه من بيته حتى ولو كان قائظا شديد الحرارة فلا يمنعه لهيب الحر ولفيح القر كل ذلك فى سبيل طلبه للعلم من شيخه وجلوسه معه من أجل أن يسائله ويأخذ عنه وكان مع ذلك يحتمل ما فيه من حدة ويصبر عليه كما صبر فى مكوثه فى الأماكن الحارة من أجل ذلك يرحمه الله .

وروى أيضا أنه قال :

(كنت آتى نافعا مولى ابن عمر وأنا يومئذ غلام ومعى غلام لى

---

(١) الذهبى - تذكرة الحفاظ - جـ١ - ص ٩٩-١٠٠ .
(٢) الذهبى - سير أعلام النبلاء - جـ٨ - ص ٤٦ .
(٣) ابن فرحون - الديباج المذهب - ص ٢٠ .

وينزل إلي من درجة له فيقعدنى معه فيحدثنى)[1].

فهذه الرواية تدل على أن الامام مالك يأخذ منه الحديث كما أخذ منه فقه ابن عمر وفتاواه فى الرواية السابقة .

رابعا : ومن شيوخه ابن شهاب الزهرى :

هو أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبدالله بن الحارث بن زهره بن كلاب القرشى الزهرى المدنى الامام ولد سنة خمسين حدث عن ابن عمر وأنس بن مالك وسعيد بن المسيب وخلائق من صغار الصحابة وكبار التابعين كان من أحفظ أهل زمانه وأحسنهم سياقا لمتون الأخبار فقيها فاضلا مات سنة أربع وعشرين ومائة[2].

جلس إليه الامام مالك فأخذ عنه الحديث فقد روى عنه فى الموطأ عدة أحاديث بلغ مجموعها نحو ثمانية عشر حديثا[3].

ولا شك أن الامام مالك فى هذه الفترة قد شدا الى حدما فى العلم وبدت عليه العناية التامه باستحفاظ الأحاديث وأقوال الصحابة وفتاويهم والحرص على ذلك فى جودة فهم وحسن ضبط بل إنه إشتهر ضبطه فى حفظ الأحاديث التى يتلقاها منهم دفعة واحدة حتى أن شيخه ربيعه بن أبى عبدالرحمن قد اعتمد عليه فى رد اللوم الذى وجه اليهم من ابن شهاب الزهرى لاهمالهم الكتاب من أجل ضبط الأحاديث فقد ورد فى ذلك أنه قال :

(قدم علينا الزهرى فأتيناه ومعنا ربيعه فحدثنا نيفا وأربعين حديثا ثم أتيناه الغد فقال أنظروا كتابا حتى أحدثكم منه أرأيتم

---

(١) القاضى عياض - ترتيب المدارك - جـ١ - ص ١٢٠ .

(٢) الذهبى - تذكرة الحفاظ - جـ١ - ص ١٠٨ - ١١٢ .
والسيوطى - طبقات الحفاظ - ص ٤٢-٤٣ - الطبعة الأولى - رجب سنة ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م ، نشر مكتبة وهبه - شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة - طبع مطبعة الاستقلال الكبرى - القاهرة .

ما حدثتكم أمس [1] أى شىء فى أيديكم منه ؟ فقال له ربيعه ها هنا من يرد عليك ما حدثت به أمس فقال ومن هو قال : ابن أبى عامر قال هات فحدثته بأربعين حديثا منها فقال الزهرى : ما كنت أرى بقى من يحفظ هذا غيرى) [2] .

ومن شدة حرص الامام على الانتفاع بالرواية منه ورغبته فى ذلك نراه يتزاحم مع غيره على عتبة باب شيخه ويتدافعون عند الدخول عليه وذلك من أجل الظفر فى الجلوس بقرب شيخهم حتى يتمكن من وعى ما يقول وحفظه وضبطه أكثر من الذى ينتهى به الجلوس فى آخر المكان حيث لا يكون مثل الذى يلى الشيخ من ناحية الاستيعاب والفهم ، ولذلك نراه يقول عن ذلك :

(كنا نأتى ابن شهاب فى داره فى بنى الريل وكانت له عتبة حسنة ، كنا نجلس عليها نتدافع اذا دخلنا عليه) [3] .

كما نراه أيضا يذهب الى بيت شيخه ابن هرمز يترقب خروجه منه أو التأكد من وجوده فى بيته كما كان يفعل ذلك مع شيخه نافع ويتحين الفرص والأوقات التى يخلو فيها ابن شهاب وينقطع فيها عن الناس وعن طلبة العلم ، وما ذلك الا ليخلو له الجو فيكون التلقى فى جو هادئ لا صخب فيه وتكون الراحة والطمأنينة وسعة البال من الشيخ وكثرة الاستيعاب وفى ذلك نراه يقول :

(شهدت العيد فقلت هذا اليوم يخلو فيه ابن شهاب فانصرفت من المصلى حتى جلست على بابه فسمعته يقول لجاريته أنظرى من على الباب فنظرت فسمعتها تقول : مولاك الأشقر مالك . قال أدخليه فدخلت فقال ما أراك إنصرفت بعد إلى منزلك ؟ قلت لا قال : هل أكلت شيئا قلت

---

(١) فى الكتاب : أفى شىء فى أيديكم والصواب أى شىء فى أيديكم .
(٢) القاضى عياض - ترتيب المدارك - جـ١ - ص ١٢١ .
(٣) القاضى عياض - ترتيب المدارك - جـ١ - ص ١٢٠ .

لا قال فاطعم قلت لا حاجة لى فيه قال فما تريد قلت تحدثنى فحدثنى سبعة عشر حديثا ثم قال وما ينفعك إن حدثتك لا تحفظها قلت ان شئت رددتها عليك فرددتها عليه)[1].

ثم نراه يجلس ومعه خيط كلما حدث ابن شهاب بحديث عقد عقدة وذلك من أجل أن يعرف عدد الأحاديث التى ألقاها شيخه حتىلا يفقد منها شىء عند كتابتها وحفظها روى عنه فى ذلك أنه قال :

(كنت أجلس الى ابن شهاب ومعى خيط فاذا حدث عقدت ثم رجعت الى البيت يعنى فكتبتها قال وفى رواية كان ابن شهاب اذا جلس يحدث ثلاثين حديثا فحدث يوما وعقدت حديثه فأنسيت منها حديثا فلقيته فسألته عنه فقال ألم تكن فى المجلس قلت بلى قال فمالك لم تحفظ قلت ثلاثون انما ذهب عنى منها واحد فقال لقد ذهب حفظ الناس مااستودعت قلبى شيئا قط فنسيته هات ما عندك فسألته فأنبأنى فانصرفت[2]) .

هكذا كان الامام رحمه الله حريصا على طلب العلم ملازما لشيوخه أتم الملازمة ، يمكث الأوقات الطوال فى مجالسهم لا يكل ولا يمل من ذلك ويترصد الأوقات ويتحين الفرص التى يخلوا بها أشياخه عن الناس وطلاب العلم فيذهب اليهم ولو كانت الأوقات غير مناسبة للمجىء لهم ، ومع ذلك رزقه الله حافظة قوية وبصيرة نافذة وفطنة حادة .

خامسا : ومن شيوخه أبو الزناد :

وهو : عبدالله بن ذكوان القرشى المدنى يكنى أبا عبدالرحمن وأبو الزناد لقب مولى رملة بنت شيبه بن ربيعه روى عن ادريس وعبد الله ابن جعفر والأعرج قيل عنه أمير فى الحديث مات سنة احدى وقيل اثنتين

---

(١) المرجع السابق - جـ١ - ص ١٢٢ .
(٢) القاضى عياض - ترتيب المدارك - جـ١ - ص ١٢٢ .

وثلاثيـــن ومائـــة [١].

كان صاحب فقه وعلم وحساب وكتابة فأخذ عنه الامام الفقه والحديث [٢].

روى عنه الامام فى الموطأ عدد من الأحاديث بلغت أربعة وستون حديثا [٣].

روى أن الامام مر بأبى الزناد وهو يحدث فلم يجلس اليه فلقيـــه مرة أبى الزناد وسأله عن سبب امتناعه عن الجلوس اليه لتلقى العلـــم والحديث فرد عليه مالك رد العالم الموقر لحديث الرسول صلى الله عليـه وسلم المحترم لها فقـــال :

(كان الموضع ضيقا فلم أرد أن آخذ حديث رسول الله صلى اللـــه عليه وسلم وأنا قائم) [٤].

فهذا النص يطلعنا على ما كان عليه مالك من خلق جم وأدب رفيع وتواضعه وتوقيره واحترامه لأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام وتأدبه فـــى مجالس العلم فلم يجلس الى أبى الزناد لما رأى الزحام وضيق المكان خوفا من تلقى العلم وهو قائما تأدبا واحتراما لأحاديث الرسول وتوقيرا لها .

سادسا : ومن شيوخـــــه :

يحيى بن سعيد بن قيس بن عمرو الحافظ شيخ الاسلام أبو سعيـــد الأنصارى النجارى المدنى قاضى المدينة ثم قاضى القضاة للمنصور حدث عن أنس بن مالك والسائب بن يزيد وأبى أمامه وسعيد بن المسيب وخلق وعنـه شعبه ومالك والسفيانان وابن المبارك وخلق سواهم ثقة فقيه رجل صالـــح كان من الحفاظ ثبت مات سنة ثلاث وأربعين ومائة [٥].

---

(١) السيوطى - طبقات الحفاظ - ص ٥٥-٥٦ .
(٢) الذهبى - تذكرة الحفاظ - جـ١ - ص ١٣٥ .
(٣) الذهبى - سير أعلام النبلاء - جـ٨ - ص ٤٥ .
(٤) القاضى عياض - ترتيب المدارك - جـ١ - ص ١٢٢-١٢٣ .
(٥) الذهبى - تذكرة الحفاظ - جـ١ - ص ١٣٧-١٣٩ .

كان معروفا بالرأى كما جاء فى رسالة اللث بن سعد[١] الى مالك فأخذ عنه الامام فقه الرأى[٢] .

كما أخذ عنه الحديث روى عنه فى الموطأ أربعة أحاديث[٣].

سابعا : ومن شيوخه ابن المنكدر :

وهو : محمد بن المنكدر بن عبدالله بن الهدير الامام شيخ الاسلام أبو عبد الله القرشى التيمى المدنى سمع أبا هريرة وبن عباس وجابر وأنس بن مالك وسعيد بن المسيب وطائفه وعنه ابنه المنكدر وشعبه ومعمر ومالك وخلق قيل عنه كان من معادن الصدق يجتمع اليه الصالحون حافظ سيد القراء مجمع على ثقته وتقدمه فى العلم والعمل توفى سنة ثلاثين ومائة[٤].

جلس مالك لابن المنكدر وأخذ عنه العلم والحديث فقد روى عنه فى الموطأ أربعة أحاديث[٥].

كما تأثر بشخصيته الزاهده وتأسى به فقد روى أن مالكا قال :

(كنت إذا وجدت من قلبى قسوة آتى بن المنكدر فأنظر اليه نظرة فأبغض نفسى أياما)[٦] .

وكان مالك اذا ذكر له النبى صلى الله عليه وسلم يتغير لونه ويصفر حتى يصعب ذلك على جلسائه فقيل له فى ذلك فقال لو رأيتم ما رأيت لما أنكرتم على ما ترون ، لقد كنت أرى محمد بن المنكدر وكان سيد القراء

---

(١) هو الليث بن سعد بن عبدالرحمن الفهمى أبو الحارث المصرى أحد الاعلام- روى عن الزهرى وعطاء ونافع وبكير بن الاشج وخلق وعنه ابنه شعيب وكاتبه أبو صالح وابن المبارك وقتيبه وخلق آخرهم عيسى بن حماد قال عنه يحيى بن بكير ما رأيت أحد أكمل من الليث بن سعد كان فقيه البدن عربى اللسان يحسن القرآن والنحو ويحفظ الحديث والشعر حسن المذاكره لم أر مثله وقال غيره ثقه كان مولده سنة أربع وتسعين ومات فى شعبان سنة خمس وسبعين ومائة (انظر السيوطى - طبقات الحفاظ ص٩٥ .

(٢) ابن القيم- اعلام الموقعين جـ٣ ص٧٢-٧٧- والقاضى عياض - ترتيب المدارك جـ١ ص١٢٩ رسالة الليث بن سعد الى مالك .

(٣) الذهبى - سير اعلام النبلاء جـ٥ ص٦٣ (٤) الذهبى - تذكرة الحفاظ جـ١ ص١٣٧ ، ١٣٨

لا يكاد يسأل عن حديث أبدا ولا يبكى حتى نرحمه[١].

فهاتين الروايتين تدلان على مدى تأثر الامام بشخصية شيخه ابن المنكدر الزاهده وتأسيه به لما كان عليه من الزهد والصدق فى العلم والدين .

ثامنا : من شيوخه جعفر الصادق :

هو جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب الهاشمى الامام أبو عبد الله العلوى المدنى الصادق أحد السادة الأعلام كان فقيها ثقة حدث عن جده القاسم وعن أبيه أبى جعفر الباقر وعروة بن الزبير وعطاء ونافع وعده وعنه مالك والسفيانان وحاتم ابن اسماعيل ويحيى القطان ولد سنة ثمانين وتوفى سنة ثمان وأربعين ومائة[٢].

روى عنه الامام مالك الحديث والفقه روى عنه فى الموطأ سبعة أحاديث[٣].

روى عن مالك أنه قال :

(لقد كنت أرى جعفر بن محمد وكان كثير الدعابة والتبسم فإذا ذكر عنده النبى صلى الله عليه وسلم اصفر وما رأيته يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الا على طهاره ولقد إختلفت إليه زمانا فما كنت أراه الا على ثلاث خصال : إما مصليا وإما صامتا وإما يقرأ القرآن ولا يتكلم فيما لا يعنيه وكان من العلماء والعباد الذين يخشون الله عز وجل)[٤].

وبعد ما تقدم هم أبرز شيوخ الامام الذين تأثر بهم وروى عنهم أكثر من غيرهم وساهموا فى تكوين شخصيته الفذه وتكوينه العلمى ونضجه فى ذلك .

---

(١) الزواوى - مناقب مالك - ص ٣٧ .
(٢) الذهبى - تذكرة الحفاظ - جـ١ - ص ١٦٦ .
(٣) الذهبى - سير أعلام النبلاء - جـ٨ - ص ٤٥ .
(٤) الزواوى - مناقب مالك - ص ٣٣ ، ٣٤ .

أما عن طريقة الامام فى أخذه العلم من مشايخه وجلوسه لذلك فانها لا تخلو عن طريقتين هما :

الأولى :

بالتلقى من أفواه الرجال لا من كتب مسطورة قد دوّن فيها العلم لأن العلم فى ذلك الوقت وما قبله كان يؤخذ بالتلقى من أفواه العلماء وكذلك نراهم يحرصون ألا يذهب عنهم شىء سمعوه من ذاكرتهم ولذلك نرى الامام مالك يقوم عندما يلقى ابن شهاب الزهرى الأحاديث عليه يقوم بضبطها بعقد خيط معه فيعقد لكل حديث عقدة ، وهكذا فاذا ند عنه حديث عاد الى استماعه لا يمنعه من ذلك مرارة الرد وحزم اللوم ثم نراه يستمع الى نيف وأربعين حديثا فلا يذهب الا النيف ويبقى الأربعون ويسمع أيضا ثلاثين حديثا فلا يند منها الا واحد ولا شك أن ذلك دلالة على قوة الحافظة الواعية عنده ولقد وصفه شيخه ابن شهاب بأنه من أوعية العلم فهذا يدل على مدى عناية القوم بالحفظ وبالأخص امامنا مالك وحرصهم على الضبط .(١)

الثانية :

أن العلماء قد ابتدأوا يقيدون القلم ويدونونه وإن لم يكن الاعتماد على ما دون وكتب ولذلك نجد ابن شهاب يحرض تلاميذه على كتابة ما يسمعون منه خشية أن يضيع عليهم ما استمعوا اليه ، ونرى مالك يذهب الى شيخه ابن شهاب وبيده الألواح يكتب فيها ما يسمع ولا يمنعه ذلك من حفظ ما كتب ووعيه ، حتى أن ابن شهاب يجذب منه الألواح ثم يختبره فيما ألقاه اليه فيجده قد وعى ذلك وحفظه فيشهد له ويقول له قم فأنت من أوعية العلم .(٢)

---

(١) القاضى عياض - ترتيب المدارك - جـ١ ص١٢١-١٢٢ .

(٢) " " " " - جـ١ ص ١٢١-١٢٢ .

وروى عن مالك أيضا أنه قال :

(كتبت بيدى مائة ألف حديث)[1] .

هكذا كان الامام مالك رحمه الله يتلقى العلم من شيوخه فمرة بالمشافهة والحفظ ومرة بالكتابة وان كان يعتنى بالحفظ أكثر كما تقدم .

مؤلفاته :

للامام مالك كتب ومؤلفات تذكرها كتب مناقبه ، وقد رويت عنه بروايات غير مشهوره حتى أنها تنتهى فى رواياتها على انفراد واحد من أصحابه أو أتباعه أو إشترك اثنان فى نقلها عنه ولم يكن لها الكثرة فى روايتها عنه حتى تبعدها عن مكان الريب فى نسبتها له وليست لها شهرة تجعلها أمراً ثابتا فى التاريخ لا يصح الشك فيه من غير سند يقدح فى نسبتها اليه ويستثنى من ذلك كتابه الموطأ الذى اشتهر عنه وتلقاه الناس بالقبول عنه وثبتت نسبته اليه وتأليفه له أمر لا يشك فيه انسان .

هذه المؤلفات ذكرها القاضى عياض بقوله :

(اعلموا وفقكم الله تعالى أن لمالك رحمه الله تعالى أوضاعا شريفة مروية عنه أكثرها بأسانيد صحيحة فى غير فن من العلم لكنه لم يشتهر عنه منها ولا واظب على إسماعه وروايته غير الموطأ حذف منه وتلخيصه له شيئا بعد شىء وسائر تآليفه إنما رواها عنه من كتب بها إليه وسألـه إياها أحد من أصحابه ولم تروها الكافة فمن أشهرها ، رسالته الى ابن وهب فى القدر والرد على القدريه وهو من خيار الكتب فى هذا الباب الدالة على سعة علمه بهذا الشأن وقد حدثنا بها غير واحد من شيوخنا بأسانيدهم المتصلة الى مالك رحمه الله تعالى ثم ذكرهم .

ومنها كتاب فى النجوم وحساب مدار الزمان ومنازل القمر وهو كتاب

---

(١) القاضى عياض - ترتيب المدارك - جـ١ - ص ١٢١ .

جيد مفيد جدا قد اعتمد الناس عليه فى هذا الباب وجعلوه أصلا وعليه اعتمد أبو محمد عبدالله بن مسرور الفقيه القروى فى تأليفه فى هذا الباب وصدر بفصوله وقد أدخل جميعها صاحب كتاب أقوال مالك أبو عبدالله المعيطى وأبو عمر بن المكوى فى جامع كتابهما الكبير ثم ذكر رواتها .

ومنها رسالته فى الأقضية كتب بها الى بعض القضاة عشرة أجزاء ومن ذلك رسالته الى أبى غسان محمد بن مطرف فى الفتوى وهى مشهورة.

ومن ذلك أيضا رسالته الى هارون الرشيد المشهورة فى الآداب - والمواعظ .

ومن ذلك كتابه من التفسير لغريب القرآن الذى يرويه عنه خالد ابن عبدالرحمن المخزومى .

ومن ذلك أيضا كتاب السر من رواية ابن القاسم .

ومن ذلك أيضا رسالته الى الليث بن سعد فى اجماع أهل المدينة[1] .

وفاته رحمه الله :

اختلفت الروايات فى أى عام توفى الامام رحمه الله ، فقيل انه عام ١٧٩هـ وقيل سنة ٨٠ هـ ، نقل عن حبيب كاتبه ومطرف فيما ذكر عنه .

وقيل سنة ٩٨هـ . وقال القاضى عن هذا التاريخ أنه وهم ، والأول هو الصحيح[2] .

والراجح من هذه الأقوال والله أعلم أنه فى عام ١٧٩هـ وذلك لما يأتى :

---

(١) القاضى عياض - ترتيب المدارك - جـ١ - ص ٢٠٤-٢٠٧ ، والذهبى - سير أعلام النبلاء - جـ ٨ - ص ٧٩ - ٨٠ .

(٢) القاضى عياض - ترتيب المدارك - جـ١ - ص١١١ ، وابن فرحون - الديباج المذهب ص ٢٨ ، والذهبى - سير أعلام النبلاء - جـ٨ - ص ١١٧ .

أولا : لشهرته من بين الرواة .

ثانيا : لاختياره من القاضى عياض بقوله :

(وأما وفاته فالصحيح ما عليه الجمهور من أصحابه ومن بعدهم من الحفاظ وأهل علم الأثر أنه توفى سنة تسع وسبعين ومائة)[1] .

ثالثا : ولأنها تواترت هذه الرواية عن أكثر الحفاظ والرواة ان لم يكن كلهم[2] .

وجاء فى سير أعلام النبلاء تواترت وفاته فى سنة تسع[3] .[4] ولكنهم اختلفوا أيضا فى أى وقت منها أى من سنة تسع وسبعين ومائة فالأكثر على أنه فى ربيع الأول ولكنهم اختلفوا فى أى يوم منه فقيل : فى صبيحة أربع عشرة من الشهر المذكور . وقيل لعشر مضت منه وقيل لثلاث خلون منه . وقيل يوم الأحد لثلاث عشرة خلت منه وقيل : لاحدى عشرة ، وقيل : فى اثنتى عشرة من رجب سنة تسع وسبعين[5] . ولكن الصحيح كما يقول القاضى عياض هو :

أنه فى ربيع الأول سنة تسع وسبعين ومائة يوم الأحد لتمام اثنين وعشرين يوما من مرضه[6] .

وغسله ابن كنانه وابن أبى زنبر وابنه يحيى وكاتبه حبيب يصبان عليه الماء ونزل فى قبره جماعة وأوصى رحمه الله أن يكفن فى ثياب بيض وأن يصلى عليه فى موضع الجنائز ، فصلى عليه عبدالعزيز بن محمد بن ابراهيم بن على بن عبدالله بن عباس ، وكان خليفة أبيه على المدينة

---

(١) القاضى عياض - ترتيب المدارك - جـ١ - ص ١١١ .

(٢) أنظر - القاضى عياض - ترتيب المدارك - جـ١ - ص ١١١ ، وابن فرحون - الديباج المذهب - ص ٢٨ ، والذهبى - تذكرة الحفاظ - جـ١ - ص٢١٢-٢١٣ وغيرهم .

(٣) يعنى تسع وسبعين ومائة .

(٤) الذهبى - سير أعلام النبلاء - جـ٨ - ص ١١٧ .

(٥) القاضى عياض - ترتيب المدارك - جـ١ - ص ١١١ .

(٦) " " " " " - ص ٢٣٧ .

ومشى فى جنازته وحمل نعشه وبلغ كفنه خمسة دنانير ،وقد روى أنه فى مرضه دخل عليه فى العشية التى قبض فيها فقيل له يا أبا عبد الله كيف تجدك قال ما أدرى ما نقول الا أنكم ستعاينون غدا من عفو الله من لم يكن فى حساب ثم ما برحوا حتى أغمضوه . وقيل أنه تشهد ثم قال : لله الأمر من قبل ومن بعد .

ورأى عمر بن يحيى بن سعيد الأنصارى فى الليلة التى مات فيها مالك فائلا يقول :

لقد أصبح الاسلام زعزع ركنه ∴ غداة ثوى الهادى لدى منحدر القبر

امام الهدى ما زال للعلم صائنا ∴ عليه سلام الله فى آخر الدهر

قال وانتبهت وكتبت البيتين فى السراج واذا الصارخ على مالك رحمه الله تعالى[1] .

أما سنه رحمه الله فقد اختلفوا فيها أيضا فقيل : ان سنه عند وفاته خمس وثمانون سنه ، وقيل : أربع وثمانون سنه ، وقيل : سبع وثمانون وقيل ست وثمانون وقيل : تسعون وقيل : تسع وثمانون وقيل اثنان وتسعون سنه وقال أبو محمد الضراب هذا خطأ والصواب ستة وثمانون وهو الأشبه مع قول بن القاسم على الأصح من مولده[2] ووفاته[3] .

ولعلى أميل لهذا القول لأنه تقدم فى تحديد السنة الذى ولد بها الامام أنها سنة ٩٣هـ ورجحناه لكونه الأشهر عند الرواة ، ولأن تاريخ وفاته قد ترجح أنها فى عام ١٧٩هـ فعليه يكون عمره ستة وثمانون سنه رحمه الله وجزاه عن الاسلام والمسلمين خير الجزاء ونفعنا بعلمه آمين .

---

(١) القاضى عياض - ترتيب المدارك - جـ١ - ص٢٣٧-٢٣٨ .

(٢) حيث تقدم أن مولده على الأرجح أنه ولد سنة ٩٣هـ وهو الأشهر والأرجح .

(٣) القاضى عياض - ترتيب المدارك - جـ١ - ص١١١ ، والذهبى - سير أعلام النبلاء - جـ٨ - ص ١١٨ ، وابن فرحون - الديباج المذهب - ص ٢٨ .

الفصل الثانـــى

" احتسابه فى العلم والفتيا والقضاء "

أولا : الاحتساب فى طلب العلم وتعليمه :

من المعلوم أن الامام رحمه الله طلب العلم وهو صغير السن كما تقدم بيانه وأنه رؤى فى حلقة ربيعه وفى أذنه شنف وأنه استمر فى طلبه حتى نبغ فيه ولازم فى ذلك عدة شيوخ تأثر بهم ونهل من معارفهم كما تقدم أيضا ولكن يحق لنا أن نتساءل هل الامام رحمه الله طلب العلم للجاه أو لرياسة أو لمصالح دنيوية أو للمفاخرة والمكابرة هل كان من هذا النوع أم أنه طلبه لذات الله يحتسب الأجر على ذلك من الله العلى القدير وأن قصده فى ذلك نشر العلم وتدريسه وتصحيح مفاهيم الناس - ومعتقداتهم وحل مشكلاتهم لا يبتغى بذلك منهم جزاءا ولا شكورا وانما دفعه ذلك ابتغاء الأجر والمثوبه من الواحد الأحد متبعا بذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم العلماء هم ورثة الأنبياء وقوله عليه الصلاة والسلام : بما معناه من سلك واديا يبتغى بذلك العلم فقد سهل الله له طريقا الى الجنة وغير ذلك من الأحاديث والآثار الدالة على فضل العلم وجزاء المثوبة عليه إذا قصد به إبتغاء فضل الله ورضوانه .

اننا بتتبعنا النصوص المدونة فى كتب المناقب والسير والتاريخ عن الأئمة وبالأخص امامنا الجليل مالك والتى تروى عنه وتوضح كيفية طلبه للعلم وتدريسه وجميع أموره فانها توضح لنا بل وتقطع فى ذلك عن أن الامام انما هو من الصنف الثانى الذى طلب العلم وعلمه لذات الله لا يبتغى بذلك جزاءا ولا شكورا من أحد وانما قصد بذلك الأجر والمثوبة واحتساب ذلك على الله ولا شك أن باستقرائنا للنصوص فى هذا المجال فهى بلا شك توضح لنا سبيل الامام فى طلبه وكيفية ذلك والخطوات التى

اتبعها فى ابتغاء ذلك والصفات التى يجب أن يكون عليها المحتسب فى هذا المجال . ولعلنا بتتبعنا للنصوص الدالة على ابتداء طلبه فى ذلك وسيرته فى ذلك توضح لنا هذه الصفات التى ينبغى كما قلنا أن يكون عليه من ابتغى الأجر والثواب من الله فى طلب ذلك وقد سلك الامام رحمه الله فى سبيل ذلك أسور مكنته من طلبه وجعلته ينبغ فيما يريد من العلم بل ويفوق أقرانه فى ذلك واتصف بها وكانت أساسا لنبوغه وهى بلا شك أساس لكل نبوغ وهذه الأسور هى : الصبر والجلد والمثابرة ومغالبة المعوقات فى الوصول الى الغاية . وقد تقدم مما سقناه ودونناه عنه فى بداية طلبه للعلم من النصوص الدالة على همته وقوة احتماله وكيف كان صبورا مثابرا مغالبا كل الصعاب فمن ذلك أنه غالب الفقر وقد أفضى به الأمر الى أن ينقض سقف بيته وأن يبيع خشبه كل ذلك من أجل طلب العلم[1] لأجل أن يستمر فى طلبه وأن لا يعوقه فى ذلك عائق ، وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على حسن نيته واخلاصه فى طلب العلم فلم يتركه من أجل الفقر الذى حصل له برهة من الزمن بل استمر وكابد وكافح حتى وصل به الأمر الى نقض سقف بيته وبيع خشبه ، كل ذلك من أجل العلم والاستمرار فيه دون انقطاع ولا شك أن هذه علامة أو صفة لمن كانت نيته لله . ويبتغى بذلك الأجر من الله ومن سيرته فى ذلك أنه كان يذهب الى بيوت شيوخه من العلماء فى الوقت القائظ الشديد الحراره ينتظر خروجهم بل وكان يتتبعهم حتى المسجد فلم يتريث أن يذهب لهم فى الأوقات الباردة المناسبة للمجىء بل سارع اليهم فى كل وقت. كل ذلك فى سبيل اخلاصه فى طلب العلم إحتسابا للأجر من الله سبحانه وتعالى بل انه يتحين للفرص السانحه لكى يخلو بمشايخه من أجل أن يستوعب أكثر ويصفى الذهن ويتمكن من مما يريده من شيخه ، فنراه يذهب الى شيخه ابن هرمز بكره فما يخرج من بيته حتى الليل يمكث معه طول

النهار ، كله من أجل ذلك . وكذلك نراه يشهد العيد ثم يذهب الى شيخه ابن هرمز ويجلس على بابه حتى يدخله ثم يسأله شيخه ويقول له ما أراك انصرفت بعد الى منزلك ، فيجيبه بالنفى بأنه لم ينصرف بعد ويسأله هل أطعمت شيئا فيقول لا ثم يأمره بأن يأكل فيقول لا حاجة لى فيه ثم يقول له ما تريد فيقول أريد أن تحدثنى فيحدثه[1] . كل ذلك من أجل تحصيل العلم والحرص على طلبه . وكذلك نراه ينتظر مدة طويلة فى وقت شديد البرودة على باب شيخه ابن هرمز وكان يتخذ تبانا وهى الوسادة محشوا للجلوس عليه يتقى بذلك برد حجر على باب ابن هرمز وقيل من برد صحن المسجد وفيه كان يجلس ابن هرمز[2] . ولا عجب فى ذلك اذا كان مقصده فى ذلك رضى الله وثوابه فهو فى طلبه للعلم المجاهد الذى لا يعوقه حر ولا قر بل يصل الغاية فى لافح الحر وفى قارس البرد رحمه الله وكان من صبره على ذلك وسيره فى طلبه أنه كان يصبر على ما يبدر من حدة شيوخه ويتلقاها بصدر رحب لأن ما يجنيه من علمهم يذهب بغضاضة الحدة ولاذع القول ومرارة اللوم ولو كان من غير مبرر أحيانا فنراه رحمه الله مع شيخه نافع مولى بن عمر رضى الله عنهما يسأله ويطلب منه أن يحدثه ويحتمل ما فيه من حده ، وكذلك مع زيد بن عمر مع ما فى خلقه من شىء كل ذلك من أجل المجاهدة والصبر والاحتساب فى طلبه للعلم[3] . وكان رحمه الله فى سيره فى ذلك ومجاهدته كأنه يرى أن المجاهدة فى طلب العلم مما يثبته فى النفس ويمكنها منه ككل شىء فى هذا الوجود فما يجىء بيسر وسهوله لا تكون له النفاسة التى توحى للنفس باستحفاظه وما يجىء بمشقة يكون نفيسا فيستحفظ ، ولذلك نراه رحمه الله يقول : لا يبلغ أحد ما يريد من هذا العلم حتى يضر به الفقر ويؤثره على كل

---

(١) انظر القاضى عياض - ترتيب المدارك جـ١ ص١٢١ .
(٢) " " " " " " " ص١٢٠ .
(٣) " " " " " " " ص١٢٠ .

حـــال[1] ، هكذا كان حال الامام كلها صبر وجلد ومثابرة محتسبا بذلك الأجر على الله ومحتملا المشاق في سبيل ذلك ولا شك أن من كـــان هذا حاله وهذه طريقته وديدنه في طلبه ستعلو همته وسيصير ذا شأن في العلم وذا قدر وهيبة وذا تزكية وقبول من المسلمين .

ومع ما تقدم من الصبر والجلد والمثابرة نراه نهج واتصف بالاخـــلاص في طلب العلم ولا شك أن هذه الصفة لها دور كبير وسبب من أسبـــاب ادراكه للحقائق وفهمه للحديث وكتاب الله تعالى فهو رحمه الله أخلـــص في طلبه للعلم اخلاصا لا رياء فيه ولا سمعة ولا جاه فطلبه لله تعالـــى لا يبغي بذلك علوا ولا استكبارا ولا مراءا ولا جدالا ونقى نفسه من كـل شوائب الغرض والهوى في دراسته وأخلص في طلب الحقيقة وأمعن في ذلك وتريث واتجه اليها من غير عوج ولا أمت في سبيله ولا شك أن الاخـلاص نور يشرق في النفس فيضيء الفكر ويسير على هدى مستقيم فالاتجاه المستقيم الخالي من شوائب الغرض والهوى والشهوة يكون معه فيض روحاني يـــدرك به الباحث الأمور من غير التواء ولا امتراء اذ أنه لا شيء يعكر صفو الفكر ويكون كالغيم على الحقائق يمنع العقل من ادراكها أكثر من انغمـــــاس النفس في الشهوات واستيلاء الهوى على الادراك واستغراق الأحاسيـــس المختلفة للمدارك فانها تجعل العقل يعمى عن الحقائق فتعمه البصـــيرة ولا تنفذ الى الأمور،ولقد كان رحمه الله يدفعه الاخلاص أن العلم الذى يطلبه كان يتصل بالدين وهو بلا شك قربة يتقرب بها الى الله سبحانـــه فيحسب له من الخير والثواب والأجر بقدر اخلاص النية في ذلك واحتسابها لله . ولذلك نراه ينتقي الرجال في أخذه ولا يأخذه من كل من جعـــل له حلقة للتدريس أو التف حوله الرجال فاذا رأى الشيخ أهلا لذلك فانـــه لا يتوانى في الجلوس والأخذ منه فهو شديد الانتقاء للرجال ، ولذلك أثـــر عنه أنه يقول : ان هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذونه[2] ، وهذه عبـــارة

(١) السيوطي ـ تزيين الممالك بمناقب سيدنا مالك جـ١ ص١٤ ـ ١٥ .

وأى عبارة تدل على أن طلبه للعلم لذات الله وأنه جزء من الدين فيجب الاحتراز والتشدد فى تلقيه من أفواه الرجال فما كل من يجلس ويلتف حوله الناس يصلح لالقاء العلم والفتيا ، ولذلك نجده رحمه الله شديد الحرص والاخلاص فى تنقية الرجال حتى ولو كانوا من أهل الخوف من الله والزهد لأنه رحمه الله يرى أن هذا العلم لا يصلح الا من كان معه تقى وورع وصيانه واتقان وعلم وفهم فيعلم ما يخرج من رأسه وما يصل اليه غدا . ولذلك نراه ترك الأخذ عن أناس لو أأتمنوا على بيت مال لكان كل واحد منهم أمينا ومع ذلك لم يأخذ عنهم لا لشىء الا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن يعنى العلم والاتقان والصيانه والفهم لأن العلم يحتاج إلى إنسان واعى مدرك فاهم يعرف مقاصده وأسراره ومفهومه ومحواه وظواهره وغير ذلك من علم الأصول . ولذلك نراه يقول أما رجل بلا اتقان ولا معرفة فلا ينتفع به ولا هو حجة ولا يؤخذ عنهم [1] كما ترك الأخذ عن أقوام لو استسقى بهم القطر لسقوا قد سمعوا العلم والحديث كثيرا ما حدث عنهم لا لشىء الا أنهم لم يكونوا من أصحاب هذا الشأن أى العلم كما تقدم كل ذلك ان دل على شىء فانما يدل على قوة ايمانه واخلاصه لله سبحانه وتعالى فى سبيل تحصيل العلم النافع الصحيح لأن نقل العلم وتعليمه أمانة فى عنق المؤمن يجب عليه أن يتحرى فى قبوله ونقله وتعليمه وهذا هو دستور ومنهاج وسبيل إمامنا الكبير غفر الله له ورحمه ،فما فتئ فى ذلك ولا تهاون ولا قصر كل ذلك يبتغى بذلك الأجر واحتسابه على الواحد الأحد ولا شك أن هذه خصال من كان قصده ذلك لا من قصده فى تحصيله وطلبه الرياسة أو الجاه أو حطام الدنيا أو الغرض أو الهوى وشتان بين الأمرين فى طريقة كل منهما فالذى يقصد بعلمه الرياسة

---

(١) القاضى عياض - ترتيب المدارك جـ١ ص ١٢٣ - منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت - لبنان .

أو الدنيا أو الهوى أو أى غرض دنيوى فليس هذا هو طريقه ومنهاجه فلا يتورع فى أخذه للعلم فيأخذ من كل من هب ودب لأجل أن يتحصل على قدر كبير وحصيلة وفيرة من العلم من أجل أن يقول الناس عنه أنه عالم لا يجاريه أحد وحتى يغتر به الناس فيجلسوا له ويأخذوا عنه فلا يهمه على أى حال كان الذى يأخذ منه المهم هو جمع هذا العلم عن أى طريق ومن أى طريق من أجل تحقيق غرضه الذى طلبه من أجله والامام رحمه الله كان يدفعه الى الاخلاص أنه كان يعتقد أن نور العلم لا يؤنس إلا من إمتلأ قلبه بالتقوى والاخلاص ، ولذلك أثر عنه أنه كان يقول : العلم نور لا يأنس الا بقلب خاشع [(١)] . فالاخلاص وترك ملاذ الدنيا وشهواتها ينير السبيل لطالب العلم فى نظره رحمه الله ، ولذلك نراه يقول عن ذلك : ما زهد أحد فى الدنيا الا أنطقه الله بالحكمة [(٢)] . وكان يقول رحمه الله حقا على من طلب العلم أن يكون فيه وقار وسكينة وخشية وأن يكون متبعا لآثار من مضى وينبغى لأهل العلم أن يخلوا أنفسهم من المزاح وبخاصة اذا ذكروا الله [(٣)] .

وقد سئل رحمه الله مرة فقيل له : لم لا تكتب عن عطاء قال أردت أن آخذ عنه وأردت أن أنظر الى سمته وأمره فأتبعته أتى منبر النبى صلى الله عليه وسلم فمسح الغاشيه والدرجة السفلى يعنى من المنبر فلم أكتب عنه إذ ذاك من فعل العامة والدرجة السفلى والغاشية شىء أصلحه بنو أميه فلما رأيته لا يفرق بين منبر النبى ولا غيره ويفعل فعل العامة تركته [(٤)] .

---

(١) القاضى عياض - ترتيب المدارك جـ١ ص ١٨٥ .
(٢) " " " " " " ص ١٨٧ .
(٣) " " " " " " ص ١٨٦ .
(٤) " " " " " " ص ١٢٤ .

هكذا كان الامام رحمه الله شديدا لانتقاده للرجال والعلماء فاذا رأى شيئا من فعل العامة أو غير مناسب لمقام العلم فانه لا يتوانى في ترك الأخذ عن صاحبه ، ولذلك قيل عنه أنه من أشد الناس تنقية للرجال والعلماء ولا يقوم أحد مقامه في ذلك ، وأنه ما رأى أحد أجود في أخذ العلم من مالك رحمه الله .

وبعد كل ما تقدم بيانه في منهاجه وسيره في طلبه للعلم رحمه الله رأينا كيف كان طريقه ومنهجه وكيف كان صابرا محتسبا في ذلك ، وكيف استطاع أن يواجه المعوقات من الفقر ، وكيف صبر على لافح الحر وقرس البرد وقره ، وكيف أخلص في طلبه وأخذه من أهله ، وكيف كان على درجة من التقى والزهد كل ذلك ان دل على شيء فانما يدلنا على أن الغاية من طلبه ونيته إنما طلبه لذات الله ونيته لله وغايته من ذلك طلب المثوبة واحتساب الأجر من الله ولم يرد بذلك زيف الدنيا وشهواتها ولا الجاه والسمعه ولا أراد بذلك الزيغ والهوى الأمر الذى جعل منه اماما مطاعا واماما أجمعت الأمة على فضله وتقديمه على غيره في العلم والزهد والتقى والصلاح فرحمه الله رحمة واسعة وجزاه عن الاسلام والمسلمين خير الجزاء وجعلنا ننتفع بعلمه ونقتدى به .. انه ولى ذلك والقادر عليه ..

أما فى تعليمه وقعوده لذلك وجلوسه للدرس وحاجة الناس اليه فى ذلك ، فلا شك أن من كانت سيرته ومنهجه مثل ما تقدم واتصافه بذلك فى طلبه للعلم من الصبر والجلد والمثابرة ومغالبة المعوقات وغيرها واخلاصه وتقواه فيه وغيرها مما تقدم من الأمور الدالة على احتساب الامام فى طلبه الأجر من الله وأنه لا يبتغى بذلك الا الأجر والثواب والغفران من الله سبحانه وأنها تبعد أن يكون الامام مقصده غير ذلك من حطام الدنيا وزيفها لا شك أنه فى هذه المرحلة التالية لطلبه العلم وجلوسه للدرس وتعليمه للعلم وحاجة الناس له فى ذلك أن يكون على قدر أكبر من التقوى والاخلاص واحتساب الأجر على الله فى ذلك وأن - مقصده ذات الله فى تعليمه وتدريسه لأنه فى مرحلة أصعب من الأولى أصبح فى وقت الحصد وجنى الثمار من علمه وأصبح ذا مسئولية عظمى لأنه مؤتمن على كل كلمة وحرف يقوله ويلقنه تلاميذه فيجب عليه فى هذه المرحلة أن يتحرى ويتأنى فى القائه الحديث والفقه وأصبح مسؤول أمام الله فى كل صغيرة وكبيرة وكل كلمة يتفوه بها من غير تمحيص أو تدقيق إذاً فلا شك أنه فى هذه المرحلة من حياته أن يكون حريصا كل الحرص على أن لا يتفوه بما يقول الا ما يظهر له أنه الحق والصواب بعد تمحيص وتدقيق لأن التلاميذ سينقلون عنه ما يقول لهم ويلقى عليهم ولعلنا فى تتبعنا لبعض النصوص الدالة على سيره فى تعليمه للعلم وجلوسه للدرس واستقرائنا لها أن تبين لنا منهجه فى ذلك الدال على أنه لا يبتغى بذلك الا طلب الأجر والمثوبة من الله واحتساب ذلك التعليم على الله لم يرد بذلك حطام الدنيا وزيفها ولم يرد بذلك الجاه والمنصب ولا شهوات النفس و هواها ورغباتها . فالأمور التى سلكها فى سبيل ذلك تدل على ما كان يبتغيه وتدل على احتسابه فى ذلك وأنه فى جلوسه للدرس والتعليم لم يطلب منه أحد ذلك ولا أخذ عليه أجرا أو اتخذه مصدرا للرزق أو غير

فلذلك نراه لما نضج فى العلم وعلا غيره فيه وأصبح ذا مكانة مرموقة وأصبح من ذوى الشأن وأصبح أن يكون أهلا للدرس والفتيا ، نراه لم يجلس لذلك من تلقاء نفسه كما يفعل من كان مقصده دنيوى أو لم يكن على شاكلته فى الاخلاص والتقوى نراه يشاور فى ذلك أهل الصلاح والفضل الذين سبقوه فى ذلك من مشائخه فان رأوه أهلا لذلك جلس للدرس والعلم وان لم يروا أنه أهلا لذلك امتنع . وهذا بلا شك دليل قاطع على أنه رحمه الله كان مقصده فى ذلك الأجر والمثوبة من الله وأنه فى عمله هذا محتسبا لله لا يريد بذلك غير وجه الله وذاته ولذلك أثر عنه أنه يقول : لا خير فيمن يرى نفسه فى حالة لا يراه الناس لها أهلا [1] .

وقال عن جلوسه للدرس : ليس كل من أحب أن يجلس فى المسجد للحديث والفتيا جلس حتى يشاور أهل الصلاح والفضل وأهل الجهة من المسجد فان رأوه لذلك أهلا جلس . وقال : وما جلست حتى شهد لى سبعون شيخا من أهل العلم انى موضع لذلك [2] .

هكذا كان الامام عند بدايته لالقاء العلم وجلوسه له وتعليمه لطالبيه لم يجلس من تلقاء نفسه دون أن يأخذ رأى أهل العلم وذوى الشأن من الذين سبقوه بعلمهم وتعلم على أيديهم لم يجلس رحمه الله حتى شاورهم وأخذ رأيهم واستفتاهم فى ذلك إذا كان يصلح لذلك أم لا وماذا كانت النتيجة ولا شك أن من كان مثله فى سيره فى طلبه ومنهجه الذى تقدم - أن يجاب بالرفض كلا بل كانت النتيجة اجماع الشيوخ كلهم على أهليته وصلاحه لذلك ولا شك أن هذه ثمرة الاخلاص والتقوى والصبر الذى تسلح

---

(١) القاضى عياض - ترتيب المدارك جـ١ ص ١٢٦ ، والاصبهانى - حلية الأولياء جـ٦ ص ٣١٧ - دار الكتاب العربى - بيروت ، والديباج المذهب لابن فرحون ص٢١ والأصبهانى - حلية الأولياء جـ ٦ ص ٣١٦ .

(٢) المرجع السابق جـ ١ ص ١٢٦ ، والديباج المذهب لابن فرحون ص ٢١ .

به الامام والذى جعل منه إماماً مطاعاً مهاباً صادقاً فاضلاً مما كان لـــه الأثر فى تزاحم الناس واقبالهم عليه فى الأخذ والتلقى وفاق أقرانه فـــى ذلك وكثر أتباعه وتلاميذه رحمه الله رحمة واسعـــة .

ومن الأمور التى التزمها رحمه الله فى جلوسه للعلم والدرس أنـــه بعد ما شهد له أهل العلم والفضل من مشايخه أنه أهل للدرس والفتوى وأنه بعد انتصابه لذلك وجلوسه له أثناء القائه الدروس والحديث لـــم يحدث بكل ما تلقاه من العلم ولم يبلغ كل ما وعى وحفظه من العلـــم لمستمعيه من طلبة العلم وغيرهم وذلك لا لشىء الا أنه لم يكن العمـــل عليها وبها فى المدينة ولأنه لا يلقي على تلاميذه منه الا ما يرى فيـــه مصلحة الناس وما يستقيم مع مقاييس نقده فى الفحص وتمييز الصحيح من غير الصحيح فليس كل ما سمعه وحفظه صحيح بل انه بعد ما أصبح كالبيطـــار الماهر أخذ يميز بين صحيح الأحاديث والأقوال والآراء وباطلها وسقيمهـــا فمن المعقول من كانت هذه سمته وسيرته أن لا يلقي ولا يتفوه الا بمـــا تأكد له صحته ووافق الصواب والعمل عليه وهذه بلا شك سمة من كـــان مقصده ونيته لله فى ذلك وهذا دليل كبير على تقاه وصدق نيته واخلاصه لله فى عمله لا يبتغى من أحد جزاءا ولا شكورا الا من رب العلـــم وأهله . ولذلك أثر عن أحدهم أنه قال عنه أن مالكا قل حديثه فأجابـــه غيره بكثرة تمييزه[1] .وروى أيضا أنه لما مات رحمه الله أخرجت كتبه أصيـــب فيها فنداق عن ابن عمر ليس فى الموطأ منه شىء الا حديثين . وروى عنه أيضا فى ذلك أنه قال : سمعت من ابن شهاب أحاديث كثيرة ما حدثت بها قط ولا أحدث بها فقيل له لم ؟ قال ليس عليها العمل وقال أيضـــا أخذت من ابن شهاب تسعة فناديق فى بطونها وظهورها ان منها أشيـــاء

---

(١) القاضى عياض - ترتيب المدارك جـ١ ص ١٤٨ .

ما حدثت بها منذ أخذتها بالمدينة [١] . وأيضا روى عنه فى ذلك إبنه فقال : لما دفنا مالكا دخلنا منزله فأخرجنا كتبه فاذا فيها سبع صناديق من حديث بن شهاب ظهورها وبطونها ملأى وعنده فناديق أو صناديق من كتب أهل المدينة فجعل الناس يقرؤون ويدعون ويقولون : رحمك الله يا أبا عبدالله لقد جالسناك الدهر الطويل فما رأيناك ذاكرت بشىء مما قرأناه ، وأيضا عن ابن اسحاق بن بابين أنه قال : وجدنا فى تركة مالك صندوقين مقفولين فيهما كتب فجعل أبى يقرأها ويبكى ويقول : رحمك الله انك كنت تريد بعملك الله لقد جالسته الدهر الطويل وما سمعته يحدث بشىء مما قرأت [٢] .

كما روى عنه أيضا أنه قال لما قيل له عند ابن عيينه أحاديث ليست عندك فقال إذاً أحدث الناس بكل ما سمعت إنى إذاً أحمق . وفى رواية إنى أريد أن أضلهم إذاً ولقد خرجت منى أحاديث لوددت أنى ضربت بكل حديث منها سوطا ولم أحدث بها وان كنت أفزع الناس من السياط [٢] ، وغير ذلك من النصوص المدونه فى كتب المناقب والسير الدالة على أن الامام لم يحدث بجميع ما تلقاه كما تقدم بعض ذلك لا لشىء الا لأنه يرى أن بعضها ليس صحيحا وبعضها ليس عليه العمل والبعض الآخر ليس من الفائدة أن يحدث به لما يلحق من تعليمه المضره مع أنه ترجى منه المصلحة لأن الناس لا يستطيعون أن يعوه أو يفهموه فيفهموه على غير معناه فتكون المضره حينما يرجى النفع كالرد على أهل الأهواء الذى أخذه من شيخه ابن هرمز كما تقدم بيانه فى طلبه للعلم .

كما أنه رحمه الله فى نهجه فى القاء الدروس والحديث أنه يترك الحديث إذا قيل له أنه ليس عند غيره من العلماء أو بان له أنه مما

---

(١) القاضى عياض - ترتيب المدارك جـ١ ص١٤٨ .

يحتج به أهل البدع ويترك التحديث به كما أنه كان يتجنب فى القائـــه وتحديثه الأحاديث الغريبة ويقول عن ذلك اذا قيل له ان فلانا يحـــدث بغرائب قال : من الغريب نغـر . ومن شدته رحمه اللـه فى القائه الدروس والحديث وتقواه فى ذلك أنه لا يحدث عمن يأخذ أو يروى الحديث من غير الثقاة ويتجنب التحديث عنهم ، ولذلك لما سئل عن ذلك رحمه الله لـــم لا يحدث عن أهل العراق قال : لأننى رأيتهم اذا جاءونا يأخـــــذون الحديث من غير ثقة فقلت انهم كذلك فى بلادهم . وقال عندى أحاديث لو ضرب رأسى بالسوط ما أخرجتها أبدا [1].

هكذا كان الامام فى تحديثه والقائه للدروس والحديث والفقه يتجنب الأحاديث والأقوال الغريبة فلا يلقيها على سامعيه من طلابه ولا يحـــدث عن أهل العلم الذين يروون ويحدثون عن غير الثقاة فى نظره ولا شـــك أن هذه ميزة وعلامة تدل على أنه رحمه الله شديد الحرص والتقوى والاخلاص فى القائه لدروسه وأحاديثه وأنه لا يتفوه الا بما هو صحيح بعد تمحيصـــه وهذا ان دل على شىء فانما يدل على الغاية التى قصدها والثمرة الـــتى يطلبها من عمله هذا والنتيجة التى يرجوها من ربه جلا وعلا محتسبا لـــه بذلك ليرفع من رصيده فى بنك الحسنات لدى رب الأرباب فى يوم لا ينفـــع فيه مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم ولعمرى انها لهذه صفة مـــن يريد ذلك وهل الا الاخلاص والتقوى والصبر ثمرة ذلك وبالاخص اذا كـــان السبيل سبيل العلم ومضمونه نصوص سنة النبى صلى الله عليه وسلم وأحكـــام شرع اللـــه .

كما أنه رحمه الله اذا شك فى الحديث طرحه كله ولا يحدث الا عـن ثقة ولا يبلغ الحديث الا صحيحـــا [2].

---

(١) انظر القاضى عياض - ترتيب المدارك جـ١ ص ١٥٠ - بتصرف .

ومن منهجه أيضا أنه إذا حدث بحديث ثم بان له فيما بعد أن غيره أومعارضه أقوى منه أو بان له ضعفه أو أى شئ يقدح فيه طرحه ولم يحدث به ولذلك نجده فى تأليفه للموطأ أنه وضعه نحو عشرة آلاف حديث تنزل تقدم بيانه فى الكلام عن الموطأ وأنه يتعاهده عاما فعاما بالتمحيص ويطرح منه حتى توفى رحمه الله وهو ألف حديث ونيف على اختلاف فى بلوغها ذلك العدد أو أقل . ولذلك قيل عنه فى ذلك كان علم الناس فى زيادة وعلم مالك فى النقصان[1].

كل ذلك ان دل على شئ فيدل على ورعه وتقواه وخوفه الدائم من الله وهذا أكبر دليل على صدق نيته واخلاصه فى علمه لله وابتغاءه الأجر منه فلو كان قصده غير ذلك لما تعاهد مؤلفه العام تلو العام بالتمحيص والتدقيق ولما حذف منه شيئا لأن من كان مقصده الرياسة أو حطام الدنيا أو الهوى ما يحذف من مؤلفه شيئا بل يزيد عليه ولا يهمه من أى طريق يروى بل همه أن يتزاحم الناس عليه وهمه ما كان يريده من جراء ذلك من غير مبالاة بقوة الحديث وصحته وضعفه ولا تميز بين الغث والسمين والصحيح والسقيم . إذا فهذا شاهد ودليل أكد على مجاهدته واحتسابه هذا العمل لذات الله لا يبتغى بذلك علوا ولا استكبارا فى الأرض ولا جاه ولا سمعة ، وكان من نهجه أيضا فى القائه وتدريسه للحديث والمسائل أنه كان لا يكثر فى التحديث والاجابة على المسائل وذلك خوفا من الغلط ومن أجل أن تحصل الفائدة فان العبرة بها لا بكثرة التحديث ولذلك أثر عنه أنه اذا سأله أحد تلاميذه ست مسائل فأجابه فيها كلها وسأله بعد ذلك قال له مالك أكثرت خذوا بيد الشيخ فجاء نفسان فأخذا بضبعيه فأخرجاه[2].

---

(١) القاضى عياض - ترتيب المدارك جـ١ ص ١٩٣ .

(٢) " " " " " ١٥٧ .

ومن ذلك أيضا أن تلميذه الشافعي رحمه الله قال : استأذنت على مالك وكنت أريد أن أسمع منه حديث السقيفه فقلت إن جعلته أولا خشيت أن يستطيله ولم يحدثني وإن جعلته آخرا خشيت أن لا أبلغه فجعلته بعد عشرة أحاديث فأخذت أسأله فلما مرت عشرة قال حسبك فلم أسمعه[1].

ومن ذلك أيضا أنه سئل رحمه الله عن مسألة ثم عن أخرى فأجاب ثم عن أخرى فلم يجب فقال له السائل لم ؟ فقال له مالك يا غلام خذ بيده فاذهب به الى السجن فقال له السائل انى قاض أمير المؤمنين قال ذلك أهون لك قال لا أعود قال خل سبيله[2].

وغير ذلك من النصوص الدالة على عدم اكثاره من التحديث واجابة المسائل وكان مقصده رحمه الله من ذلك كما تقدم خشية الغلط للاقلال من الحديث والاجابة على المسائل تحصل الفائدة وترسخ في الذهن ودعيت بخلاف الاكثار فانه يكون سببا لضياع ذلك على حساب الفائدة ويكون عرضة للوقوع في الخطأ وهذه سمة تدل على تقاه وورعه والغاية من قصده رحمه الله .

ومن نهجه أيضا أنه كان رحمه الله شديد الاحترام والوقار لأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم فقد أطلعتنا كتب المناقب على فيض من غيض في منهجه في ذلك . فمن ذلك رحمه الله أنه كان لا يحدث ولا يجيب على المسائل وهو قائما أو ماشيا أو متكئا توقيرا لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم ويؤدب من يفعل ذلك فقد ورد في ذلك عدة أخبار من ذلك أن تلميذه ابن مهدى قال : مشيت مع مالك يوما الى العقيق من المسجد فسألته عن حديث فانتهرني وفي رواية

---

(١) القاضي عياض - ترتيب المدارك جـ١ ص ١٦٥ .

(٢) " " " " " " " " .

فالتفت الي وقال لي كنت فى عينى أجل من هذا أتسألنى عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نمشى فقلت إنا لله ما أرانى إلا وقد سقطت من عينه فلما قعد بعدت منه فقال أدن هاهنا فدنوت فقال قد ظننت أنا أدبناك تسألنى عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أمشى سل عما تريد هاهنا (١).

وأيضا سئل رحمه الله وهو قائم فلم يحدثهم وسئل أيضا وهو قائم فأمر بحبس السائل . ومن ذلك أيضا أن الخليفة هارون الرشيد كان يستمع الحديث عند مالك وهو متكئ قد استند الى جنب مالك فقال له مالك : يا أمير المؤمنين من تواضع لله رفعه الله فقام فقعد بين يديه فحدثه (٢).

ومن اجلاله أيضا وتوقيره لأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم أنه كان لا يحدث الا على طهارة وأنه إذا علم من قاصديه أنهم يطلبون الحديث قام ودخل مغتسله فاغتسل وتطيب ولبس ثيابا جددا ولبس ساجه وتعمم ووضع على رأسه طويله وتلقى له المنصه فيخرج اليهم وقد لبس وتطيب وعليه الخشوع ويوضع عود فلا يزال يبخر حتى يفرغ من الحديث هكذا كان ديدنه مع حديث الرسول صلى الله عليه وسلم فلا يحدث الا على طهارة ويلبس أحسن الثياب ويمس أحسن الطيب ويتعمم ثم يجلس على منصة بارزة حتى يستطيع الجميع ادراك ووعى ما يقول وقد سئل مرة عن فعله ذلك فقال رحمه الله أحب أن أعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحدث به الا على طهارة متمكنا (٣).

ومن ذلك أيضا أنه كان يكره أن يحدث فى طريق قائما ومستعجلا

---

(١) القاضى عياض - ترتيب المدارك جـ ١ ص ١٦١ .
(٢) المرجع السابق جـ١ ص ١٦٠-١٦١ .

وقال أحب أن أفهم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان من نهجه أيضا فى مجلسه وصفة ذلك المجلس ودرسه أنه التزم فيه الوقار والسكينة والابتعاد عن لغو القول وما لا يحسن بمثله وكان يرى ذلك لازما لطالب العلم فكان مجلسه مجلس وقار وعلم وكان رجلا مصيبا نبيلا ليس فى مجلسه شىء من المراء واللغط قط ولا رفع صوت وكان من أدبه رحمه الله أنه إذا سئل عن مسألة أو أى شىء لم يقل لسائله من أين رأيت هذا وكان أيضا إذا جلس لم يتحول عن جلسته حتى يقوم وكان جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير تسمتا وأدبا ومهابة له رحمه الله وكان رحمه الله من أدبه أنه إذا دخل عليه أصحابه وتلاميذه يميّل رأسه أو يطرقه حتى إذا أخذ الناس مجالسهم رفع رأسه فقال السلام عليكم وكان قصده من ذلك لئلا يقرب بعض الناس على بعض من العلوية أو العثمانية أو غيرهم فينتقد عليه ذلك كان يدعهم حتى يأخذون مجالسهم وكان بعضهم يعرف حق بعض وكان لا يوسع لأحد فى حلقته ولا يرفعه يدع أحدهم حيث انتهى به المجلس وكان رحمه الله اذا جلس للحديث قال : ليلنى منكم ذوو الاحلام والنهى [1] . هكذا كان رحمه الله توقيره لأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وصفة مجلسه لذلك وهذا إن دل على شىء فانما يدل على رجحان عقله وتقواه وإخلاصه فى عمله لله سبحانه وتعالى فهذه من خصال المحتسب الذى يطلب من عمله الأجر والثواب من الله وشتان من هذا أدبه وصفة مجلسه وعمله وبين من كان مقصده بعلمه الدنيا وشهواتها فانه يكون على النقيض من ذلك وإذا فهذا دليل آخر قاطع يثبت لنا أن مراده ونيته فى ذلك الدار الآخرة وقربة الى الله لا الجاه والمنصب والرياسة .

---

(١) القاضى عياض - ترتيب المدارك جـ١ ص ١٥٤-١٥٥ .

ومن منهجه أيضا فى ذلك أنه رحمه الله صبر على ذلك صبرا منقطع النظير وأخلص فى ذلك فلم يكل ولم ينقطع أو يتخاذل أمام المحن والمصائب والنكبات ولم يفرغ من مجلسه للحديث والعلم إلا بعد إتمامه ذلك وفراغه منه فلم يترك الحديث ولم يقطعه لأى عارض كان حصل له فى مجلسه وهذا أيضا رأس قمة الاخلاص والاجلال للحديث والعلم وقد حدثتنا كتب المناقب أنه كان مرة يحدث رحمه الله فلدغته عقرب ستة عشرة مرة وهو يتغير لونه ومع ذلك يصبر ولا يقطع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما فرغ من المجلس وتفرق الناس قيل له من تلاميذه لقد رأينا منك اليوم عجبا قال انما صبرت اجلالا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن ذلك أيضا أنه كان جالسا للعلم فوقعت على رأسه وزغتان فمرتا على قلنسوته ثم دنتا الى عنقه حتى دخلتا تحت طوقه حتى خرجتا من تحت ثيابه وما نفضهما وما حل صفوته[1].

هكذا كان الامام فى صبره وتوقيره واحترامه لأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام واخلاصه له يصبر على المحن والمصائب والمخاطر كما حصل له من اللدغ حتى وصل العدد الى ستة عشرة وهو فى هذا الموقف لا يقطع أحاديث الرسول فهذا الموقف منه رحمه الله ماذا يدل عليه لا شك أنه يدل على عظيم صبره واحتسابه واخلاصه لله سبحانه وتعالى مرخصا نفسه فى سبيل الله لا تعيقه عن الله أى مكيدة ولا نائبة فهذا قمة الاحتساب وقمة الاخلاص والتقى فجزاه عنا وعن الاسلام والمسلمين خير الجزاء ونفعنا بعلمه آمين .

كما كان له موقف أيضا يدل على أنه لم يبتغ بالعلم الذى طلبه وعلمه الجاه والسلطان والمال وهو موقفه من الخلفاء وأبنائهم فنجدهم

---

(١) انظر القاضى عياض - ترتيب المدارك جـ١ ص ١٥٥-١٥٦

يطلبونه يقدم اليهم فى مكة فى موسم الحج لتعليمهم والاستفادة من علمه وأدبه لأبنائهم ، ولكنه رحمه الله يأبى ذلك ويمتنع عن المجىء لا لشىء الا لتوقيره أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم والعلم . ويقول ان العلم يؤتى له ولا يأتى فالخليفة يطلبه اليه من أجل ذلك ولكنه يمانع من ذلك توقيرا للعلم وأهله مع أن الطالب والآمر الخليفة فلو كان يقصد بعلمه الجاه والسلطان والمال لما توانى فى ذلك وللبى نداء الخليفة ، ولكنه رحمه الله معروفة غايته من ذلك ولأجل ذلك مانع اجلالا للعلم واحتراما له .

وروى عنه فى ذلك أنه لما قدم هارون الرشيد المدينة دعى مالكا فقال مالك : منكم خرج هذا العلم وأولى الناس باعظامه ومن اعظامكم له ألا تدعوا حملته الى أبوابكم قال قد فعلت يا أبا عبدالله .

ومن ذلك أيضا : أن هارون الرشيد لما قدم المدينة وجه الى مالك البرمكى وقال له قل له احمل لى الكتاب الذى صنفته حتى أسمعه منك فوجد من ذلك مالك واغتم وقال للبرمكى أقرئه السلام وقل له العلم يزار ولا يزور وأن العلم يؤتى ولا يأتى فرجع البرمكى الى هارون فأخبره بذلك فغضب وأشار عامة أصحاب مالك أن يأتى هارون وقال البرمكى للرشيد يبلغ أهل العراق أنك وجهت الى مالك فخالفك إعزم عليه حتى يأتيك فاذا بمالك قد دخل فسلم وليس معه كتاب فقال له هارون فى ذلك فقال مالك يا أمير المؤمنين ان الله تعالى بعث الينا محمد صلى الله عليه وسلم وأمر بطاعته واتباع سنته وأن نرعاه حيا وميتا وقد جعلك فى هذا الموضع لعلمك فلا تكن أول من ضيع العلم فيضيعك الله . الله الله لقد رأيت من ليس هو فى حسبك ولا نسبك من الموالى وغيرهم يعزّ هذا العلم ويجله ويوقر حملته فأنت أحرى أن تجل علم ابن عمك ولم يزل يعدد عليه حتى بكى[1] .

وغير ذلك من مواقفه مع الخلفاء وأبنائهم فى طلب العلم وامتناعه عن الاتيان

اليهم واصراره على أن يأتوا اليه ويقرأوا عليه وكان من نتيجة ذلك ان استجاب الخلفاء الى ذلك كما فعل هارون الرشيد وكما فعل المهدى من الاتيان اليه والاستفادة منه وكذلك فعل المهدى وأمر ابنيه موسى وهارون للذهاب اليه والقراءة عليه[١].

ومن نهجه أيضا وسيرته فى تعليمه أنه رحمه الله التزم السنه فى تحديثه وتعليمه فألزم نفسه إتباع السنن وكراهة المحدثات ولا شك أن من كان على مثل ما تقدم من الاخلاص والتقوى والاجلال والاحترام لأحاديث الرسول وغيرها مما تقدم أن يلتزم السنه وأن يتبع السنن ويكرة المحدثات والبدع فى الدين وأن يلتزم الأمور الظاهرة الواضحة البينة ولذلك نراه رحمه الله كان كثيرا ما يتمثل بهذا البيت :

وخير أمور الدين ما كان سنة .. وشر الأمور المحدثات البدائع[٢]

وقال فيه أحمد بن حنبل : اذا رأيت الرجل يبغض مالكا فاعلم أنه مبتدع وقال أيضا ابن المهدى : اذا رأيت الحجازى يحب مالك بن أنس فاعلم أنه صاحب سنة واذا رأيت أحد يتناوله فاعلم أنه على خلاف[٣].

وهذا ولا شك من صفات المحتسب الذى صفته البحث عن الحق وابتغاء الأجر من الله فانه يلزم السنن ويكره ويبتعد عن المحدثات فى الدين والبدع والأمور التى ليست من الاسلام فى شئ فيكون أقرب الناس الى الحق وأبعدهم عن الباطل وهذا هو عمله رحمه الله وديدنه حتى قبضه الله اليه .

وأيضا من نهجه فى بث العلم ونشره أنه دفعه اخلاصه الى التزام

---

(١) القاضى عياض - ترتيب المدارك جـ ١ ص ١٥٨ .

(٢) " " " " " ١٦٩ . والديباج المذهب لابن فرحون

ما سبق وهو بعض من كثير ودفعه أيضا لأن يبتعد عن كثير مما يـــراه لا يليق بالعالم المخلص الذى يطلب العلم لذات الله سبحانه وتعالـــى فقد ابتعد رحمه الله عن الجدل فى الدين والمنازعة فيه لأنه يـــرى أن المجادلة نوع من المنازله ودين الله أعلى من أن يكون موضعا لـــنزال المسلمين ولأن الجدل يدفع فى كثير من الأحوال الى التعصب للفكـــرة من غير أن يشعر المجادل وأيضا التعصب فى موضوع ما تكون نظـــرة المتعصب فيه نظرة جانبية لا تدرك الأمر من عامة وجوهه بل تدركـــه من وجه واحد اذ المتعصب لا يرى إلا من ناحية واحدة فكان رحمـــه الله يرى أن العلم أجل من أن يكون موضع جدال ومسابقة لأنه يكـــون الغرض منه أن ينال العالم اعجاب السامعين . ومن يدفعه الى القول الرغبة فى الاعجاب يقول الحق والباطل والصدق والكذب ويرى أيضـــا أن الجدال لا يليق بالعلماء لأنه ينقص من كرامتهم لأن السامعيـــــن ينظرون اليهم وهم يتغالبون فى القول كما ينظرون الى الديكه وهـــى تتنافـــر ولذلك نراه جابه بهذه الحقيقة الرشيد وأبا يوسف عندمـــــا قال له الرشيد ناظر أبا يوسف فقال له مالك : ان العلم ليس كالتحرش بين البهائم والديكـة (١).

ومن أجل ذلك نراه رحمه الله أكثر من النهى عن الجدل وكـــان يقول أنه ليس من الدين بشىء وأن الجدال يذهب بنور العلم مـــن قلب العبد وأنه يقسى القلب ويورث الضغـن . وروى عنه أن أقوامـــا كانوا يتجادلون عنده فقام ونفض رداءه وقال انما أنتم حرب . وقيل لـــه رحمه الله : الرجل له علم بالسنه يجادل عنها ؟ قال لا ولكن يخـــبر بالسنه فان قبل منه والا سكت .

---

(١) انظر القاضى عياض- ترتيب المدارك جـ١ ص ٢٢١ .

وقيل عنه : أنه رحمه الله من أبعد الناس من مذاهب المتكلمين وأشدهم بغضا للعراقيين وألزمهم لسنة السالفين من الصحابة والتابعين (١) .

واذا كان ما تقدم هو منهجه وسيره فى بث العلم ونشره وطريقته فيه ومسلكه الذى سار عليه فانه رحمه الله أثر عنه بعض الحكم والوصايا التى تدل على ورعه وتقاه واخلاصه فى عبادته وعلمه وجميع أموره وهى بمثابة الزهور التى تفتحت فأينعت من شجرة مباركة وحان قطافها فتسابق الناس الى قطفها وجمعها واحتاج الناس لها ولم اذا كانت من ما هو أهل لذلك وهم متعطشون لها للانتفاع بها وهى بلا شك من ثمار احتسابه طوال حياته فى جهاده فى سبيل تحصيل العلم وتعليمه وبثه للناس فمن ذلك أنه قال : انما التواضع فى الدين والتقى لا فى كذا قال التواضع ترك الرياء والسمعه . وقال : شر العلم الغريب وخير العلم الظاهر الذى قد رواه الناس . وقال أيضا : الزهد فى الدين طيب المكسب وقصر الأمل . وقال : التواضع فى التقى والدين وليس فى اللباس . وقال أيضا : خير الامور ما كان منها ضاحيا بينا أمره وان كنت فى أمرين أنت منهما فى شك فخذ بالذى هو أوفق . وقال لابن وهيب :أدّ ما سمعت وحسبك ولا تحمل لأحد على ظهرك فانه كان يقول أخسر الناس من باع آخرته بدنياه وأخسر منه من باع آخرته بدنيا غيره . وقال أيضا : ينبغى للرجل اذا خول علما وصار رأسا يشار اليه بالأصابع : أن يضع التراب على رأسه ويمتهن نفسه اذا خلا بها ولا يفرح بالرئاسة فاذا اضطجع فى قبره ووسد التراب رأسه ساءه ذلك كله . وقال أيضا : من اذالة العلم أن تجيب كل من سألك ولا يكون اماما من حدث بكل ما سمع ومن اذالة العلم أن ينطق به قبل أن يسأل عنه .

وقال لبعض بنى أخيه : اذا تعلمتم علما من طاعة الله فلير عليك

أثره ولير فيك سمته وتعلم لذلك العلم الذى علمته السكينة والحلم والوقار وقال حقا على من طلب العلم أن يكون فيه وقار وسكينة وخشية وأن يكون متبعا لآثار من مضى وينبغى لأهل العلم أن يخلوا أنفسهم من المزاح وبخاصة اذا ذكروا الله . وقال رحمه الله فى سماع أشهب وابن القاسم: من صدق فى حديثه متّع بعقله ولم يصبه ما يصيب الناس من الهرم والخرف .

وقال : لا يصلح الرجل حتى يترك ما لا يفيد فاذا كان كذلك أوشك الله أن يفتح الله فى قلبه .

وقال أيضا : ما زهد أحد فى الدنيا الا أنطقه الله بالحكمه .

وقال أيضا : عليك بمجالسة من يزيد فى علمك قوله ويدعوك لحال الآخرة فعله واياك ومجالسة من يعللك قوله ويعييك دينه ويدعوك الى الدنيا فعله . وقال مالك للقعنبى : مهما تلاعبت بشىء فلا تلعبن بدينك وقال لابن أخيه ان أحببتما أن ينفعكما الله بهذا الأمر فأقلا منه وتفهما فيه . وقال ما أكثر أحد قط فأفلح . وكان رحمه الله اذا ودعه أحد من طلبة العلم عنده يقول لهم : اتقوا الله فى هذا العلم ولا تنزلوا به دار مضيعة وبشوه ولا تكتسوه .

وقال لابن وهيب : اتق الله واقتصر على علمك فانه لم يقتصر أحد على علمه إلا نفع وانتفع فان كنت تريد لما طلبت ما عند الله فقد أصبت ما تنتفع به وان كنت تريد بما تعلمت الدنيا فليس فى يدك شىء[1] .

وغير ذلك من الوصايا والحكم والآداب التى لم تتطرق الا الى بعضها والتى تدل على اخلاصه للعلم وتقواه فيه وسيره فيه من بدايته للجلوس حتى توفاه الله . فقد كافح رحمه الله وجاهد فى الله حق جهاده فى سبيل نشر العلم وأحكامه ما فتىء فى ذلك ولا كلّ وقد

---

(١) انظر القاضى عياض : ترتيب المدارك جـ١ ص١٨٤-١٩٠ ، وتزيين الممالك فى مناقب

كان درسه رحمه الله أول الأمر فى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ثم صار درسه فى بيته والسبب فى ذلك الانتقال من المسجد الى بيته هو مرضه الذى لم يكن يقدر أن يعلنه على الناس وهو مرضه بسلسل البول وانتقل بسببه الى بيته ، فقد كان قبل مرضه يجلس فى المسجد ويحضر الجمعة والصلوات ويشهد الجنائز ويعود المرضى ويقضى الحوائج ثم ترك الجلوس فى المسجد فكان يصلى وينصرف الى مجلسه فى بيته وترك حضور الجنائز فكان يأتى أصحابها فيعزيهم ثم ترك ذلك كله فلم يكن يشهد الصلوات فى المسجد ولا الجمعة ولا يأتى أحدا يعزيه ولا يقضى له حقا واحتمل الناس له ذلك حتى مات عليه وكان ربما قيل له فى ذلك فيقول : ليس كل الناس يقدر أن يتكلم بعذره[1]. ويظهر من تغير حاله الذى تقدم أنه كان تابعا لتغير حال المرض وحال الجسم والسن ، فلما كانت وطأة المرض خفيفة ولم تثقله السنون كان يحضر الصلوات ثم اقتصر على صلاة الجمعة وكان يعزى الناس فلما اشتد المرض وثقلت السنون لزم بيته ودرسه وكان الناس يأتون اليه من كل حدب وصوب ومن كل أصقاع الأرض يتهافتون اليه فهو رحمه الله قد انقطع فى بيته ولم ينقطع عن الناس وقد كان لخشيته لله واخلاصه فى طلب العلم وتعليمه وورعه وتقواه وبعده عن اللغو والتأثيم وما خصه الله به من قوة الروح وعزة النفس كان ذا هيبة شديدة إذا تكلم لا يراجع وإذا أفتى لا يسأل من أين هذا وهذه الهيبة لازمة لمن صفته وهدفه الاحتساب حتى يهابه الناس وينفذ قوله وعلمه ويقبل عليه الناس وقد لازمته هذه الصفة حتى هابته الناس والأمراء والملوك . كما أخبرتنا كتب المناقب بذلك هكذا كان رحمه الله فى حياته كلها جهاد وكفاح طلب علم وتدريس وعبادة ، ولقد مد الله فى عمره وبارك له فيه وعاش قرابة التسعين سنة كلها جهاد وكفاح وزاده بسطة

من العقل وأنار بصيرته فكانت تنفذ فى كل شىء وكلما تقدم به العمـــــر ازداد فهما وادراكا وجلالا واقبالا وتسامعت بذكره البلاد الاسلامية من أقصى المشرق الى أقصى المغرب وقصده العلماء والطلاب لسماع الحديث والـدرس والاستفتاء فى المسائل كما سنبين ذلك فى موضعه ان شاء الله . فكـــان رحمه الله يعرفهم حكمها ويبين أصل ذلك من الشرع الاسلامى وازدحمت فى بابه الوفود وخصوصا فى موسم الحج ، وكان لهذا الازدحام حاجب علـــى بابـه كالملوك ، وكان له من تلاميذه وأتباعه حراس يشبهون الشرطة بـــل لقد كان له محبس يحبس فيه من يشذ عن الطريق الصحيح أو يسلك مسلكـــا غير مستقيم فى درسه . وقد أوردت كتب المناقب نتفا من ذلك[1].

هكذا كان الامام رحمه الله مجاهدا صابرا عظيما فى تقواه واخلاصـــه محتسبا ذلك العمل على الله فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون الا مـــن أتى الله بقلب سليم . فجزاه عن الاسلام والمسلمين خير الجزاء ونفعنـــا بعلمه ، انه ولى ذلك والقادر عليه ، والله الموفق وهو خير المعيـن .

---

(١) أنظر عيسى الزواوى : مناقب مالك ص ٣٢ ، وترتيب المدارك جـ١ ص ١٥٤ ، ١٦١ ، ١٦٥ .

ثانيا : احتسابه فى مجال الافتاء والقضاء :

تقدم فى الكلام عن إحتساب الامام فى طلبه للعلم وجلوسه للعلم والدرس وعن سيره فى ذلك ، وأنه التزم ونهج فى ذلك أمورا جعلت منه اماما مخلصا تقيا محتسبا فى عمله لا يبتغى به جاها ولا سمعة ولا رياءا ولا استكبارا ولا زخرف الدنيا وشهواتها . وانما يبتغى بذلك الأجر والثواب من رب العالمين ،وأن هذه الأمور بلا شك هى من صفات المحتسبين الذين يريدون بعملهم وجه الله والدار الآخرة . وأنها أيضا جعلت منه اماما مطاعا مهابا ، رجل صدق وثقة ، الأمر الذى نتج عنه تزاحم الناس عليه من كل الأمصار فى الجلوس له وطلب العلم على يديه فكثر بذلك وفوده وتلاميذه حتى أصبح بذلك امام عصره وفقيه زمانه . ولا شك أن من كانت هذه صفته فى عمله من طلبه للعلم وتعليمه وجلوسه لذلك لا شك أن تكون هذه الصفة ملازمة له فى باقى أموره من الفتيا وللناس وجلوسه لهم فى ذلك . وقد تقدم أن الامام رحمه الله قد جلس للدرس والافتاء وسنه سبع عشرة سنة أو أكثر من ذلك بقليل أى فى سن العشرين ، وقبل أن نتناول جلوسه للافتاء لا بد أن نتطرق للامام هل جلس للقضاء من قبل الخلفاء والولاة أم لا ؟ وهل يتقاضى عن ذلك أجرا منهم . فالحقيقة عند تتبعنا لكتب المناقب والسير والتاريخ لم تذكر أن الامام جلس للقضاء سواء كان عن طريق الخلفاء والولاة أو من تلقاء نفسه لأنه رحمه الله لم يرد بعلمه الا الأجر والثواب من الله والقضاء للخلفاء والولاة له رزق يصرف له وهو يتورع عن ذلك ولأن القضاء ربما يجره على أن يظلم أحدا بحكمه وهو الذى أثر عنه أنه كان يتحرز فى فتياه على ما سوف نبينه فيما بعد وأنه كان لا يقطع بحرمة ولا حل الا ما كان ظاهرا فى الكتاب والسنة وهو يرى أن القضاء من متاع السلطان . فلذلك ابتعد عنه حتى أنه لم

فى موضعه . اذا فالامام رحمه الله لم يجلس للقضاء طوال حياته حتى أن الخليفة أبا جعفر المنصور قد طلب قدومه اليه وجلوسه عندهم لذلك ، ولكنه رفض وقال ان كانت عزيمة من أمير المؤمنين فلا سبيل الى مخالفته وان كانت غير ذلك فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون . فتركه الخليفة وشأنه ، وقال لا أحمل عليك شيئا تكرهه[1]. ويفهم من هذا الطلب أن المقصود الانتفاع بعلمه فى الفتيا والقضاء والدرس لا غير ذلك ، ولكنه مع ذلك مانع وقال قولته المتقدمة فخلى سبيله . ومن ذلك أيضا أن أبى جعفر المنصور قد صرح له بذلك فقال له أريد أن أوليك القضاء . فقال له رحمه الله لا أصلح لذلك لأنى محدود[2]. فامتنع عن ذلك رحمه الله واحتال عليه بحجة أنه محدود ويقصد بذلك المحنة التى حلت به من والى المدينة وضرب على اثرها بالسياط وذلك بسبب افتائه أن يمين المكره لا يلزم فضرب على ذلك لما سعى به الوشاة الى والى المدينة من أنه لا يرى بيعتهم فى هذا الافتاء[3].

إذا فالامام لم يجلس للقضاء فى حياته ، ولكن الذى ثبت عنه وتناقلته كتب المناقب والسير أنه رحمه الله جلس للافتاء والدرس كما تقدم من تلقاء نفسه محتسبا بذلك العمل لله لا يريد بذلك جزاءا ولا شكورا من أحد فى هذه الدنيا وحرى بمن كان نهجه فى علمه وتعليمه كما تقدم من الاخلاص والتقى والاحتساب والصبر والوقار وغير ذلك من الأمور التى اتصف بها فى حياته العلمية والعملية فى طلبه للعلم وفى جلوسه للعلم والدرس والتى تدل على اخلاص عمله لله ولذات الله محتسبا الأجر على الله فى ذلك أن يكون فى جلوسه للافتاء وسيره فيه على ما نهجه فى علمه وجلوسه

---

(١) عيسى الزواوى - مناقب مالك ص ٢٣-٢٤ . دار الفكر - بيروت - طبع ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م .

(٢) المرجع السابق ص ٢٦ .

لـه فى الدرس والتعليم وأن يكون فى ذلك محتسبا لله صابرا على ذلـــك يبتغـى بذلك الأجـر والثواب من رب السموات والأرض رب العالمين فى يوم تذهل فيـــه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شـديد .

وباستقرائنا للنصوص الدالة على قيامه بالافتاء لمن سـأله فى مسائـــل أو من احتاجه فى فتيا نجده نهج فى ذلك أمورا التزمها وسار على منوالها وهى أمور تدل على اخلاص نيته فى ذلك واحتسابه الأجر على ذلك مـــن الله ، هذه الأمور بلا شك هى تميز المحتسب من غيره لأن هذه الأمـــور وهذه الصفات التى التزمها ونهجها فى فتياه تدل دلالة قاطعة علـــى اخلاص نيته ومراده من ذلك وأنه لذات الله وفى الله لا يبتغى من أحـــد جاه ولا سلطان ولا مال ولا ابتغى بذلك هوى النفس وشهواتها ولذلـــك نجده عندما نهل من العلم من مشايخه وعلا غيره فى ذلك وفاقهم فيـــه وأصبح قادرا على معرفة كل ما يدور حول العلم وأسراره وقادر على أن يميز بين صحيحه وسقيمه وباطله ، وقادر على أن يفتى، لم يجلس لذلك من تلقاء نفسه ، كما تقدم لما انتصب للتدريس والحديث لم يجلس من تلقاء نفســـه كما يفعل غيره ومن مراده وهمه الدنيا والجاه حتى يقال عنه المفتى فـلان بل استشار غيره فى ذلك وأجازوه فى ذلك وشهدوا له بأنه أهل للافتـــاء والدرس ، ونراه يقول ما جلست حتى شهدلى سبعون شيخا من أهل العلم أنى لموضع لذلك وانها لشهادة فى محلها وقد ظهرت ثمرتها فى بدايـــة إفتائه وأول ما بان من فقهه رحمه الله فقد فاق أقرانه ومن سبقوه فى هذا الميدان عندما تصدوا للافتاء فى مسائل وهو حاضر معهم فكان قوله فـــى الحكم فى المسائل التى طرحت أصوب من الذين أفتوا فيها من المشائـــخ وأهل العلم فمن ذلك أن رجلا أوصى عند وفاته قد زوج ابنته من ابـــنى

أخيه وقد أخذ مهورهما ومات الرجل فأحضر الوالى وكان الحسن بن يزيد الناس ومنهم ابن أبى ذئب وابن عمران وابن أبى سبره ومالك وهو حدث وذكر المسألة فقال جميعهم ذلك جائز ومالك ساكت فقال : ما ترى يا مالك؟ قال ذلك لا يجوز . فغضب الجميع وقال ابن أبى ذئب لا يشاء أن يرد علينا الا رد فقال الوالى : أصاب وأخطأتم ثم قال : من أين قلت يا أبا عبدالله هذا ؟ قال أرأيتم ان هديتنا جميعا الى زوجيهما فتعلق كل واحد منهما بهودج واحدة كل واحد يقول هى زوجتى دون الأخرى لمن تقضون بها ؟ فسكت القوم قالوا أصاب قال : فما ترى يا أبا عبد الله قال : النكاح مفسوخ حتى تسمى كل امرأة لرجل معين (١) .

ومن ذلك أيضا مما يدل على علو منزلته فى ذلك وصوابه فى فتواه وتقديمه على غيره فيه أنه رحمه الله أصاب فى حكم مسألة وبان فضل علمه فى ذلك على غيره ممن كان حاضرا فقد روى أن سارقا أخذ وسعه قمح وقد سرقه من تلاليس لهذا وهذا حتى اجتمع قمح كثير فاعترف بذلك فأحضر الوالى من بالمدينة وفيهم ربيعة ويحيى بن سعيد ومعهم مالك على حداثة سنه لمعرفتهم بعلمه فلما أخذوا مجالسهم سألهم الوالى عن المسألة وأخرج القمح فاذا شبيه فكلهم رأى أن عليه القطع ومالك ساكت فقال له : تكلم قال : لا قطع عليه فاستعظم ذلك من هناك وسألوه من أين قاله ؟ فقال لهم : هل يجب القطع الا فى ربيع دينار فصاعدا فأما أن يسرق من هذا التليس ما يساوى درهما ومن هذا ما يساوى درهما هكذا فهذا لا قطع عليه فانصرف الناس وقد بان فضل علمه (٢) .

---

(١) انظر فيما تقدم القاضى عياض - ترتيب المدارك جـ١ ص١٢٦-١٢٧ . بتصرف .

(٢) المرجع السابق جـ١ ص ١٢٧ .

وغير ذلك من الفتاوى التى قال بها لما سئل وهو حدث عند بداية أول جلوسه وقد بان فضل علمه على من سبقه وأصاب فيما أجاب عنه من المسائل وتقدم عليهم فى ذلك وهم جانبهم الصواب فى حكمهم .هذا ان دل على شىء فانما يدل على سرعة بديهته وغزارة علمه وحدة ذكائه وقوة فطنته وجودة علمه رحمه الله وقد تقدم بيان ذلك فى طلبه للعلم ما كان عليه حاله فى ذلك رحمه الله وهذا بلا شك من ثمرة احتسابه أن جمع علما نافعا واتصف بعقلا صائبا وبصيرة نافذة وظهرت ثمرته فى اصابته للحكم الصحيح فى جميع ما سئل دون أقرانه ومن سبقه .

ومن الأمور التى نهجها وسار عليها فى فتواه لمن سأله واجابته على المسائل وتدل على اخلاصه فى ذلك واحتسابه ذلك لله أنه التزم الافتاء فيما يقع من المسائل دون أن يغرض خشية أن يضل وأن يبعد عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن يندفع الى المقالات فى الأمور وفرض غير المعقول وكان تلاميذه يجتهدون أحيانا فى أن يحملوه على الاجابة عن أمور لم تقع لأن الشغف العقلى وتطبيق الأصول التى أخذوها قد يدفعهم الى السير وراء الفرض والتقدير فلا يطاوعهم ولا ينساق وراء فروضهم وتقديرهم بل يقف عند حد الواقع الذى يجب على المفتى أن يتعرف حكمه ما استطاع الى ذلك سبيلا .

وقد روى عنه فى ذلك أنه سأله رجل عن مسألة فرضية فأجابه بقوله : سل عما يكون ودع ما لا يكون وسأله آخر عن نحو هذا فلم يجبه رحمه الله فقال له لم لا تجبنى ؟ يا أبا عبدالله فقال له لو سألت عما تنتفع به أجبتك .وكان أصحابه يحتالون أن يجيء رجل بالمسألة التى يحبون أن يعلموها كأنها مسألة بلوى فيجيب فيها [1].

---

(١) القاضى عياض - ترتيب المدارك جـ١ ص ١٥١ .

كما التزم رحمه الله الأناة فى الافتاء وكان يفكر التفكير الطويل العميق فى المسألة قبل أن يجيب ولا يسارع رحمه الله الى الافتاء لأنه يرى أن المسارعة فى الافتاء قد تجر الى الخطأ وهذا بلا شك يدل على اخلاصه فى فتواه محتسبا ذلك لله يرجو ثوابه ويخاف عقابه ومن الأمثلة الدالة على التزامه هذا النهج أنه سمع يقول انى لأفكر فى مسألة منذ بضع عشرة سنة فما اتفق لى فيها رأى الى الآن وكان يقول ربما وردت - على المسألة فأسهر فيها عامة ليلتى .

وكان اذا سئل عن المسألة قال للسائل انصرف حتى أنظر فيها فينصرف ويتردد فيها فقلنا له فى ذلك فبكى وقال : انى أخاف أن يكون لى من السائل يوم وأى يوم . وكان رحمه الله يقول : من أحب أن يجيب عن مسألة فليعرض نفسه قبل أن يجيب على الجنة والنار وكيف يكون خلاصة فى الآخره ثم يجيب .(١)

هكذا كان رحمه الله عمله فى فتواه يتأنى ويفكر التفكير الطويل قبل أن يجيب على المسألة وذلك خوفا منه أن يقع فى الخطأ فيأثم فى ذلك وهذا ان دل على شىء فانما يدل على اخلاصه وتقواه واحتسابه ذلك العمل لله سبحانه يبتغى بذلك ثواب الدنيا والآخرة من الله سبحانه . ومن نهجه فى ذلك أيضا أنه كان يتحرز عن أن يقول هذا حلال وهذا حرام من غير نص منهما اخلاصا منه للكتاب والسنه وأما فيما يراه من غيرهما فيذكر رأيه من غير أن يقطع بحرمه مقتفيا بذلك أثر السلف ومنهجهم فى ذلك من أنهم يتورعون فى الفتيا فلا يقطعون بحل أو بحرمه الا ما بان لهم فى ذلك نصا فى الكتاب أو السنة وأنهم كانوا اذا سئل أحدهم عن مسألة كأن الموت أشرف عليه ، ولذلك كان رحمه الله يكثر من قوله

---

(١) أنظر ابن فرحون : الديباج المذهب ص٢٣ ، والقاضى عياض: ترتيب المدارك جـ١ -

معقبا كلامه فى الفتيا بقوله : ان نظن الاّ ظنا وما نحن بمستيقنين .

كما روى عنه رحمه الله مقتفيا خطة السلف ومستنكرا بذلك صنيع فقهاء عصره من اكثارهم من القطع فى الحلال والحرام بكثرة ورغبتهم فى الاكثار من ذلك فقال رحمه الله : ما شئ أشد على من أن أسأل عن مسألة من الحلال والحرام كأن هذا هو القطع فى حكم الله ، ولقد أدركت أهل العلم والفقه ببلدنا وان أحدهم اذا سئل عن مسألة كأن الموت أشرف عليه ورأيت أهل زماننا هذا يشتهون الكلام فيه والفتيا ولو وقفوا على ما يصيرون اليه غدا لقللوا من هذا وان عمر بن الخطاب وعليا وعلقمة خيار الصحابة كانت تتردد عليهم المسائل وهم خير القرون الذى بعث فيهم النبى صلى الله عليه وسلم كانوا يجمعون أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ويسألون حينئذ ثم يفتون فيها وأهل زماننا هذا قد صار فخرهم الفتيا فبقدر ذلك يفتح لهم من العلم ولم يكن من أمر الناس ولا من مضى ولا من سلفنا الذين يقتدى بهم ويعول الاسلام عليهم أن يقولوا هذا حلال وهذا حرام ولكن يقول أنا أكره كذا وأحب كذا وأما حلال وحرام فهذا الافتراء على الله أما سمعت قول الله تعالى :

(قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق ... الآية)[1] .

لأن الحلال ما أحلّه الله ورسوله والحرام ما حرماه .[2]

ومن اخلاصه وتقواه فى ذلك أنه ينظر الى العلم نظرة واحدة لا يفرق بين مسائله من ناحية الأهم أو يعتنى ببعض ولا يلقى البعض

---

(١) سورة يونس - الآية : ٥٩ .

(٢) القاضى عياض : ترتيب المدارك جـ١ ص ١٤٥ ، ١٤٨ - منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت - تحقيق الدكتور أحمد بكير محمود .
والديباج المذهب : لابن فرحون ص٢٣ - دار المكتبة العلمية - بيروت .
وعيسى الزواوى - مناقب مالك ص ٣١ - الطبعة الأولى سنة ١٣٢٥هـ .

اهتمامه فانه رحمه الله يعتبره أمانة حملها لا يفرق بين مسائله من ناحية الأهمية أو العناية بالبعض دون البعض فهو علم طلبه وتعلمه يريد به قربة الى الله ومحتسبا اليه فى ذلك لا يريد به الدنيا وشهواتها أو الجاه والسلطان ولذلك فلا غرو اذا هو لم يفرق بين دقيق العلم وجليله واعتبره أمانة ثقيلة على الانسان يجب عليه الاعتناء به . وقد تقدم بيان ذلك فى طلبه لذلك وجلوسه له بعد ذلك . ولذلك نراه رحمه الله غضب لما سئل عن مسألة وقال له مالك لا أدرى فقال له السائل مسأله خفيفة سهلة وانما أردت أن أعلم بها الأمير فقال له رحمه الله مسألة خفيفة سهلة ليس فى العلم شىء خفيف أما سمعت قول الله تعالى : (انا سنلقى عليك قولا ثقيلا)[1] . فالعلم كله ثقيل وبخاصة ما يسأ عنه يوم القيامة[2] .

فهذه المقاله من مالك فى رده على السائل لهى أكبر دليل على تقواه واخلاصه فى العلم الذى طلبه وعلمه وأن عمله ذلك لله سبحانه وتعالى محتسبا له لا يبتغى به الا الأجر والثواب منه سبحانه وتعالى فلو كان مقصده غير ذلك لأجاب السائل ولما غضب عليه ونهره عن مقالته هذه ولكن لما كان الامام مقصده لله نجده احتسب على السائل ونهره وغضب عليه وبين له أن العلم واحد ليس فيه مسألة خفيفة ومسألة ثقيلة ولا بعضه مهم والبعض الآخر غير مهم فعله رحمه الله هذا يثبت احتسابه لله الذى لا يشك فيه أى انسان ، فجزاه عن الاسلام والمسلمين خير الجزاء .

وأيضا من الأمور التى نهجها فى جلوسه للفتوى واجابته على المسائل نجده يكثر من قول لا أحسن ولا أدرى تورعا فى الفتوى واخلاصا فى ذلك

---

(١) سورة المزمل : الآية ٥ .

(٢) القاضى عياض : ترتيب المدارك جـ ١ ص ١٤٧ - ١٤٨ .

خوفا من أن يقع فى الخطأ فيأثم وذلك اذا أعمل فكره ولم يصل فى تفكيره الى شىء ولذلك نجده يكثر من ذلك وقد اشتهر عنه ذلك واستفاضت به الأخبار كما تناقلتها كتب المناقب والسير حتى قيل فيه ما رأيت أحدا من العلماء أكثر أن يقول ما أحسن من مالك وربما سمعته يقول ليس هذا ببلدنا . كما أنه سئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال فى اثنتين وثلاثين لا أدرى وسئل أيضا عن أربعين مسألة فلم يجب منها الا فى خمس كما أنه رحمه الله يجيئه المستفتى من أقصى الأرض ويسأله عن مسألة استودعه اياها أهل المغرب فقال رحمه الله لا أدرى ما ابتلينا بهذه المسألة فى بلدنا ولا سمعنا أحدا من أشياخنا تكلم بها ولكن تعود ولما كان من الغد جاءه فقال له مسألتى فقال ما أدرى ما هى فقال الرجل يا أبا عبد الله تركت خلفى من يقول ليس على وجه الأرض أعلم منك فيجيبه رحمه الله غير مستوحش اذا رجعت فأخبرهم أنى لا أحسن (١).

هكذا كان رحمه الله لا يبالى اذا لم يعرف وجه الحق على اليقين أن يقول لا أحسن أو لا أدرى غير مبال بما يعتقده السائل عنه من تحقيق هدفه أو خيابة ظنه فيه لأنه رحمه الله لا تأخذه فى الحق لومة لائم وهذا بالطبع هو ذروة الاحتساب وسنامه .

ولم يكن رحمه الله قوله لا أدرى أو لا أحسن عن عجز مطلق كما يتوهم بعض الناس أو من فى نفسه حقد وغيره من الامام فى صنيعه هذا ولكنه يقول ذلك عندما يكون الذى وصل اليه ظنا لا ينبغى اعلانه أو لم يجد لهذه المسألة شبيها فيما سمع من فتاوى الصحابة وما أثر عمن يقتدى بهم فهو رحمه الله الفقيه الثاقب النظر الحاد الفطنة السريع البديهة ولكنه مع ذلك التقى الذى يخشى الافتراء على الله تعالى وما أحسن ما وصفه

---

(١) القاضى عياض : ترتيب المدارك جـ١ ص ١٤٥ - ١٤٦ .

به بعض تلاميذه فى تأبيه الفتيا أحيانا : ان الفقه من بابه وما رفعه الله الا بالتقوى[1] .

هكذا كان الامام رحمه الله يكثر من قول لا أدرى أو لا أحسن عند طلب الاجابة على بعض الأسئلة التى يشك فى اجابتها أو لم تترجح له أو لم توافق ما سمعه من شيوخه أو من يثق بهم وقد اقتصرنا على ذكر بعض الأمثلة على ذلك والا فان النصوص الدالة على ذلك كثيرة ومتنوعة ولكن للايجاز آثرنا الاقتصار على ما تقدم فجزاه الله عنا خير الجزاء على ما قدم لأمته من ثروة وكنز باق لا يفنى على مر الأزمان ويتداوله الأجيال عن الأجيال الى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ومن الأمور التى نهجها أيضا أنه فى اجابته على المسائل يكثر من قول لاحول ولا قوة الا بالله ويقول عن اجابته انما أنا بشر أخطىء وأصيب . فانظروا فى رأيي فكلما وافق الكتاب والسنه فخذوا به وما لم يوافق الكتاب والسنه فاتركوه[2] . وهذا دليل على اخلاصه وتقواه لربه فى فتياه واجابته على المسائل وشتان بينه وبين من مراده غير ذلك فانه أبعد ما يكون من الالتزام بذلك لأن غرضه ونيته ليست لله انما هو للجاه والهوى نعوذ بالله من ذلك .

ومن اخلاصه فى فتواه أنه كان يكف عن الاجابة اذا كثرت عليه الأسئلة فى المسائل وذلك خوفا من كثرة الخطأ والوقوع فيه ، ولذلك أثر عنه أنه عندما يكثر عليه السؤال يكف ويقول حسبكم من أكثر أخطأ وكان يعيب كثرة ذلك . وقال يتكلم كأنه جمل مغتلم ويقول هذا كذا هو كذا يهدر فى كل شىء[3] .

---

(١) القاضى عياض : ترتيب المدارك جـ١ ص ١٤٥ .
(٢) المرجع السابق جـ١ ص ١٤٦-١٤٧ .
(٣) المرجع السابق جـ١ ص ١٥٠ .

فلا يجيب رحمه الله على المسائل اذا كثرت وذلك خوفا من الوقوع فى الأخطاء وكان يقلل من الاجابة من أجل ذلك احتسابا فى عمله واخلاصا فيه وتقواه فى ذلك وكان اقلاله فى ذلك له نتيجة مثمرة وهو أن الناس لما رأوا من حاله هذه تزاحموا عليه من أجل أن يظفر كل واحد منهم بالجواب على مسألته من شيخهم مالك ، ولكنه رحمه الله اذا أكثروا من ذلك يأمرهم بالتوقف ويعلل لهم السبب فى ذلك من خشية الوقوع فى الخطأ والانحراف عن جادة الحق فى الاجابة على مسائلهم ولأن الاقلال يكون أبلغ فى الفهم وأعمق فى التفكير والوصول الى الصواب فى الاجابة على مسائلهم وأمكن فى وعيها وحفظها وهذه ولا شك سمة من سمات الاحتساب تميز بها رحمه الله على غيره وكانت لها ثمرتها من تزاحم الناس عليه واصابته فى الفتيا لمن سأله .

ومن الأمور التى سار عليها فى جلوسه للفتيا وتدل على عمق بصيرته وحسن أدبه وعمق وعيه أنه لا يتدخل فى أمر القضاة ولا يجيب عن مسائل تتصل بالقضاة ، ولذلك أثر عنه أنه يقول فيما يسأل عنه من أمر القضاء هذا من متاع السلطان (١).

فالامام رحمه الله لا يتعرض لأحكام القضاة بنقد ولا تمحيص ويقول عن ذلك هذا من متاع السلطان وهذا بلا شك اخلاص منه فى ذلك .وذلك لأن التعرض لأحكام القضاة بالنقد على ملأ من التلاميذ والحضور والأصحاب قد يؤدى الناس على عصيانها ويجرؤهم على ذلك أو على الأقل يذهب بما تستحق من مهابة وتقدير واجلال لتجتث المنازعات من جذورها ولكيلا تفتح على الناس باب الطعن فى الأحكام بالحق وبالباطل ولكنه مع ذلك رحمه الله ان استشير أشار وان استفتى من قبل السلطان أفتى . هكذا كان

---

(١) القاضى عياض: ترتيب المدارك جـ١ ص ١٥٠ .

رحمه الله دائما ثاقب البصيره ملازما للصواب فى اجتهاده ومتحريا له فى أقواله وأفعاله وآرائه وفتياه مخلصا بذلك نيته لله محتسبا له فى مسلكه ومنهاجه الذى سلكه فى فتياه .

ومن عظيم احتسابه وقوة ايمانه وتقواه فى فتواه واخلاصه لله فى ذلك أنه لاقى من جراء افتاءه بما يراه أنه الحق والصواب فى ذلك وثباته على ذلك لا تأخذه فى الله لومة لائم أنه لاقى من جراء ذلك النكال والمحن والضرب . فقد ضرب بالسياط ومدة يده حتى انخلعت كتفه كل ذلك بسبب جهاده فى الحق واحتساب ذلك على الله وثباته عليه ولا بد للمحتسب أيا كان عمله اذا كان عمله لله مخلصا له لابد له من المصائب والمكائد والمحن التى تمر به ولكن من كانت نيته لله وعمله لذات الله لا ينثنى ولا يهتز أمام هذه المحن بل تزيده ايمانا وثباتا على الحق ويعتبر ما يلحق به تاجا قد تحلى به وبلاءا يصبر عليه وتمحيصا لذنوب قد ارتكبت من غير قصد ورصيدا من الحسنات يعتلى بها بمشيئة الله فوق درجات الجنان .

وامامنا رحمه الله قد ناله من ذلك محنه حلت به سببها على أرجح الروايات أنه كان رحمه الله يحدث بحديث ليس على مستكره طلاق[1] ولكن مروجى الفتن ومحبى الشر اتخذوا من هذا الحديث حجة لبطلان بيعة أبى جعفر المنصور وأن هذا أذاع وشاع فى وقت خروج محمد بن عبدالله النفس الذكية بالمدينة واتخذه الناس ذريعة على أنه يجوز أن يتحللوا من بيعة المنصور زاعمين أنها كانت بالاكراه والغلب ووجد الكائدون لمالك فى ذلك فرصة للكيد له فأخبروا والى المدينة بذلك فكانت المحنة وقد ورد فى ذلك : أنه لما سود مالك وسمع منه وقبل قوله حسده الناس وبغوا عليه

---

(١) رواه ابن ماجه ـ طلاق - ١٦ .

فلما ولى جعفر بن سليمان على المدينه سعوا به اليه وأكثروا عليه عنده وقالوا لا يرى ايمان بيعتكم هذه شيئا ويأخذ بحديث ثابت الأحنف فى طلاق المكره أنه لا يجوز فغضب جعفر ودعابه فاحتج عليه فما رفع اليه ثم جره ومده وضربه بالسياط ومدت يده حتى انخلعت كتفه وفى رواية ومدت يداه حتى انخلع كتفاه[1].

ولكن الامام رحمه الله مع ضربه هذا الضرب المبرح والذى معه انخلعت كتفاه واعتل من ذلك الضرب أياما لم ينتقم من ضاربه لما اعتذر اليه أبى جعفر المنصور وقال له والله الذى لا اله الا هو ما أمرت بالذى كان ولا علمته وانه لا يزال أهل الحرمين بخير ما كنت بين أظهرهم وانى أخالك أمانا لهم من عذاب الله ، وقد رفع الله بك عنهم سطوة عظيمة فانهم أسرع الناس للفتن وقد أمرت بعدو الله أن يؤتى به من المدينة الى العراق على قتب وأمرت بضيق حبسه والاستبلاغ فى امتهانه ولا بد أن أنزل به من العقوبة أضعاف ما نالك منه فقال له مالك عافى الله أمير المؤمنين وأكرم مثواه . قد عفوت عنه لقرابته من رسول الله صلى عليه وسلم وقرابته منك ، فقال له أبو جعفر عفا الله عنك ووصلك[2].

فعفى عنه الامام وجعله فى حل من ذلك من أجل قرابته لرسول الله عليه الصلاة والسلام ولأجل أن يكتسب من جراء ذلك الأجر وتكفير السيئات من رب العالمين وهذا ولا شك هو ما يبتغيه ويرجوه المحتسب لله فى عمله وكان رحمه الله صابرا على ما حل به من العقوبة ومحتملا ذلك

---

(١) ابن عبد البر: الانتقاء فى فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء ص٤٣-٤٤ ، نشر مكتبة القدسى عام ١٣٥٠هـ ، والذهبى : سير أعلام النبلاء جـ٨ ص٧٢ طبع مؤسسة الرسالة والديباج المذهب: لابن فرحون ص٢٨ - دار الكتب العلمية - بيروت ، وحلية الأولياء للاصبهانى جـ٦ ص٣١٦ - دار الكتاب العربى - بيروت ، وتزيين الممالك بمناقب مالك للسيوطى ص١٣ الطبعة الاولى سنة ١٣٢٥هـ لصاحبها عمر حسين الخشاب وترتيب المدارك للقاضى عياض جـ١ ص٢٢٨ منشورات دار مكتبة الحياة بيروت ، ومناقب مالك للعيسى

فى ذات الله وكان يكثر من قول ما شاء الله لا حول ولا قوة الا بالله وكان كثيرا ما يتمثل حينما تذكر له المحنة بقول عمر بن عبدالعزيز: ما أغبط أحدا لم يصبه فى هذا الأمر أذى . وقد أثر عنه أيضا أنه كان يقول عند ضربه كلما ضرب سوطا قال : اللهم اغفر لهم فانهم لا يعلمون حتى فرغ من ضربه .

هكذا كان حاله رحمه الله عند ضربه لم يتضجر ولم ينتقم بل عفى عمن أوقع عليه الضرب واحتسب بذلك على الله ثم انه رحمه الله بعد ضربه ما زال فى رفعة من الناس واعظام حتى كانت تلك الأسواط حلى حلّى به رحمه الله تعالى ونفع به آمين ، وجزاه الله عن الاسلام والمسلمين خير الجزاء[1].

---

(١) انظر ابن فرحون - الديباج المذهب ص ٢٨ ، والقاضى عياض : ترتيب المدارك - جـ١ - ٢٣٠ .

وبعد ما تقدم من الكلام فى جلوسه للفتوى وما نهجه فى ذلك وسار عليه نراه رحمه الله اتبع اسلوبا آخر فى سبيل الوصول الى الحق وهو مناظراته مع العلماء كأبى يوسف صاحب أبى حنيفه وقاضى أبى جعفر المنصور وله أيضا مناظرات مع بعض الخلفاء الذين لهم نزعة علميه كأبى جعفر المنصور وقد تقدم أنه رحمه الله كان ينهى عن الجدل فى الدين وفى العلم وقد يبدو بادىء الرأى أن مناظراته هذه تتناقض مع ما نهى عنه من الجدل. والحق أنه لا يمكن للعالم المتصدى للفتوى ويجعل من عمله ذلك حسبة لله ولذات الله أن يبتعد عن أى مناظره وخصوصا فى زمن اختلفت فيه منازع الفقهاء باختلاف الصحابة رضوان الله تعالى عليهم الذين انتهى علمهم الى هؤلاء الفقهاء وأيضا باختلاف البيئات الاقليمية والفكرية وباختلاف المنازع العقلية والنفسية . لذلك فقد كان مالك رحمه الله يجتمع ويلتقى بكثيرين من مروجى علم عؤلاء الفقهاء واذا كان رحمه الله يلتقى بالفقهاء فى موسم الحج فلابد أن يكون بينهم حديث فى الفقه وأن تختلف وجهات نظرهم وأجوبتهم عن نظر مالك وأن يبين كل وجهة نظره لصاحبه وهذا بلاشك مناظره بريئة الغرض منها الوصول الى الحق وما كان العالم قط أن يتحاشاها ومن ذلك النوع أثر عن الامام مناظرات مع أقرانه من العلماء والمتفقهين من ذلك: أن أبا يوسف سأل الامام مالك رحمه الله عن مقدار الصاع فقال له مالك خمسة أرطال وثلث فقال له من أين قلتم ذلك ؟ فقال مالك لبعض أصحابه أحضروا ما عندكم من الصاع فأتى أهل المدينة أو عامتهم من المهاجرين والأنصار وتحت كل واحد منهم صاع فقال هذا صاع ورثته عن أبى عن جدى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال مالك هذا الخبر الشائع عندنا أثبت من الحديث[1].

---

(١) القاضى عياض : ترتيب المدارك جـ١ ص ٢٢٤ .

وفى مناظرة ثانية مع ابى يوسف أيضا وهو أن أبا يوسف لا يرى الترجيع فى الأذان ومالك يراه فانه لا تثبت عبادة بغير نص أو حمل على نص فقال له أبو يوسف تؤذنون بالترجيع وليس عندكم عن النبى صلى الله عليه وسلم فيه حديث فالتفت مالك اليه وقال يا سبحان الله ما رأيت أمرا أعجب من هذا ينادى على رؤوس الأشهاد فى كل يوم خمس مرات يتوارثه الأبناء عن الآباء من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم الى زماننا هذا أيحتاج فيه الى فلان عن فلان هذا أصح عندنا من الحديث[1].

ومن ذلك أيضا أنهما تناظرا حول صداق المرأة فأبى يوسف يرى أنه لها أن تصنع به ما شاءت ان شاءت رمت به وجائته فى قميص وان شاءت جعلته فى خيط الدوامة فقال مالك رحمه الله لو أن أمير المؤمنين خطب امرأة من أهله وأصدقها مائة ألف درهم فجائته فى قميص لم يحكم لها بذلك ولكن يأمرها أن تتجهز وتتهيأ له بما يشبه مما يتجهز به النساء فقال هارون أصبت .

ومن ذلك أيضا أن رجلا من أهل العراق سأل مالكا عن صدقة الحبس فقال اذا حيزت مضت فقال العراقى ان شريحا قال : لا حبس عن كتاب الله فضحك مالكا وكان قليل الضحك ثم قال : رحم الله شريحا لم يدر ما صنع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم هنا[2].

ما تقدم صورة من منظرات مالك وهى لا تتجاوز توضيح الأمر وبيان وجهة نظره وهى مناظرة لا تتجاوز المنحى الذى يتجه فيه الى بيان الحق ومعرفته لا الى المهارة وحب الغلب والذى يؤدى اليه الجدل وهذا فرق بين المناظرة والجدل ولذلك فان نهيه عن الجدل فيما تقدم لا يتعارض

---

(١) القاضى عياض : جـ١ ص٢٢٤ . (٢) المرجع السابق ص ٢٢١-٢٢٢ .

مع ما أثرعنه من مناظرات وكان هدفه فيها بيان وجهة نظره وابداء رأيه الذى رآه والذى ترجح لديه فى حكم المسائل التى تناظر فيها مع غيره ودائما يكون رحمه الله فى مناظراته مصيبا فى الحكم وفى الرأى وهذه بلا شك ثمرة الاحتساب والاخلاص والتقوى فى طلبه للعلم وتعليمه له .

ومع مناظراته للعلماء ومناقشاته معهم فانه رحمه الله انتهج الاتصال بالعلماء بالمراسلة والمكاتبة وكان الهدف من ذلك النقاش حول أمور فقهية تتعلق بالافتاء كما حصل ذلك فى رسالته الى الليث بن سعد والتى ذكر فيها له أنه يفتى الناس بأشياء مختلفة مخالفه لما كان عليه الناس فى المدينة ثم ذكر أن الناس تبع لأهل المدينة اليها كانت الهجرة وبها تنزل القرآن وأحل الحلال وحرم الحرام ... الخ الرسالة . فبين فى هذه الرسالة أن الليث كان يفتى بفتاوى تخالف ما كان عليه أهل المدينة ثم يأمره بأن - يقتفى أثر أهل المدينة ويتبع ما كان عليه العمل فيها وبين سبب ذلك فى رسالته من أنهم كانت الهجره اليهم وبها تنزل القرآن وأحل الحلال وحرم الحرام والرسول بين أظهرهم يحضرون الوحى والتنزيل ويأمرهم فيطيعونه ويسن لهم فيتبعونه حتى توفاه الله .

ثم قام من بعده اتبع الناس له من أمته ممن ولى الأمر من بعده بما نزل بهم فما علموا أنفذوه وما لم يكن عندهم فيه علم سألوا عنه .... الخ ذلك[1] .

هكذا كان الامام رحمه الله لا يألو جهدا فى الجهاد فى سبيل الحق واعلانه مع العامة والخاصة مع الخلفاء والولاة ومع العلماء سواء كان بالمناظرة والمناقشة أو بالمكاتبة والمراسلة وكل ذلك من أجل اظهار الحق

---

(١) القاضى عياض : ترتيب المدارك - جـ١ - ص ٦٤-٦٥ بتصرف .

والوصول اليه وابداء النظر حول ذلك حسبة لله واجتهادا منه فى سبيـــل اعلاء كلمة الحق وبيانها واظهارها للناس فرحمه الله رحمة واسعة وجـــزاه عن الاسلام والمسلمين خير الجزاء ورزقنا الانتفاع بعلمه آميـن .

الفصل الثالث

الاحتساب على الخلفاء والولاة والعامة

تمهيد :

تقدم أن الامام مالك رحمه الله جاهد فى سبيل طلب العلم وأخلص فى ذلك ونهج فى سيره هذا ومسلكه فيه أمورا جعلت منه عالما بارزا فاق أقرانه وشيوخه وجعلت منه اماما تقيا صادقا فى علمه وقوله وفعله متحريا الحق فى ذلك ما أمكنه الى ذلك سبيلا ، ثم أنه لما نضج فى ذلك وأصبح قادرا على الافتاء نابغا فيهوصارأهلا للعلم والدرس جلس لذلك بعد أن شهد له شيوخه فى ذلك وأنه سلك فى ذلك أمورا جعلت منه اماما صادقا مخلصا محتسبا بعمله هذا لله ولذات الله الأمر الذى جعل الناس من أقطاب الأرض يتزاحمون على بابه وفى حلقته فى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم يطلبون منه العلم ، ولكنه مع ذلك لم يكتف بذلك من جلوسه للتدريس والافتاء وما لاقاه فى سبيل ذلك صابرا على ذلك محتسبا فيه لله ، فلقد سلك رحمه الله طريقا آخر ومسلكا مغايرا . فمع انشغاله بالعلم والفتيا الا أنه رحمه الله أخذ يغشى الأمراء ويدخل على الخلفاء لا لشىء الا لأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ولنصحهم ووعظهم وانكار ما قد يقع منهم من أمور ليست من الدين بشىء ولا أمر بها محتسبا ذلك لله مخلصا له فيه لا يبتغى منهم جزاء ولا شكورا .

وفى كلامنا فى هذا الموضوع سنتناول دخوله رحمه الله على الخلفاء والحكام والأمراء وحسبته عليهم ، وسنبين طريقته فى ذلك ومنهجه فى ذلك ومن ثم سنتناول أمور متفرقة من احتسابه رحمه الله على العامة وكيفية ذلك .

أولا : الاحتساب على الخلفاء :

تقدم أن الامام مالك رحمه الله لا يرى فى حكم الخلفاء الذين عاصروه هو حكم الاسلام المبنى على الشورى أو هو حكم الامام الذى تجتمع فيه الصفات المؤهله للخلافة من التقى والصلاح والعدل والعلم وغيرها ، ولكنه مع ذلك لم ير جواز الانتقاض أو الخروج عليهم ليأسه رحمه الله من الاصلاح عن طريق ذلك ،ولأن الفتن التى رآها وعايشها وسمع بها وبلغه خبرها لم تنقل حال المسلمين من فساد الى صلاح بل كانت على العكس من ذلك بل حولت الحال من فساد الى أفسد منه ، ولكنه رحمه الله مع ذلك لم يقطع صلته بالخلفاء والحكام والأمراء بل كان يرى رحمه الله من الواجب عليه ارشادهم واصلاحهم لأنه رجل ينظر الى وقائع الأمور ولا يقف عند الصور المثالية وحدها ،ولأنه يرى لو أنه تخلف هو أو غيره من العلماء عنهم لأتاهم من يزين ظلمهم وطغيانهم وأهواءهم ،ولأنه رأى رحمه الله أن وعظهم يذهب ببعض ما يقعون فيه ويقلل من شرورهم وربما حملهم الى الصلاح المطلق وصار منهم رجال أتقياء ، من أمثال عمر بن عبدالعزيز ولذلك نراه يكثر من الدخول على الخلفاء والأمراء لوعظهم وارشادهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وحثهم على الخير حتى قيل له فى ذلك انك تدخل على السلاطين وهم يظلمون ويجورون فقال : يرحمك الله يعنى المتكلم وأين المتكلم بالحق (1). يقصد بذلك أين الجاهر بالحق الذى يصدع به ويدخل على السلاطين والأمراء فيأمرهم بذلك وينهاهم عن الباطل وكان رحمه الله كلما كبر فى نظر الناس زادت رغبته فى الموعظة ، وكان يحث غيره من العلماء على الدخول على الخلفاء والأمراء لارشادهم ووعظهم

---

(1) أنظر القاضى عياض : ترتيب المدارك جـ١ ص ٢٠٧ ،
والزواوى : فى مناقب مالك ص ٣١ .

وقول الحق لهم فقد آثر عنه أنه قال : (حق على كل مسلم أو رجل فعل الله فى صدره شيئا من العلم والفقه أن يدخل الى ذى سلطان يأمره بالخير وينهاه عن الشر ويعظه حتى يتبين دخول العالم على غيره لأن العالم انما يدخل على السلطان يأمره بالخير وينهاه عن الشر فاذا كان فهو الفضل الذى لا بعده فضل[١] .

فهو يرى رحمه الله أن من واجب العالم الفقيه أن يدخل على الخلفاء والولاة لنصحهم ووعظهم وأمرهم بالخير ونهيهم عن الشر لأنهم أعلم من غيرهم ، بهذه الأمور وأبلغ بالنصح والوعظ ويعرفون كيف يطوعون الخليفة أو الوالى لموعظتهم ونصحهم . ولذلك أكثر من ذلك رحمه الله وبالغ فى ذلك حتى قيل له فى ذلك : أنك تأتى الأمراء فقال ان ذلك بالحمل من نفسى وذلك أنه ربما أستشير من لا ينبغى[٢] .

فهو يحمل نفسه عناء الذهاب وذلك فيما يظهر بعد ما اعتل رحمه الله وترك صلاة الجماعة فى المسجد من أجل ذلك ليأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويؤثر ارشادهم على الخروج عليهم رحمه الله ويخشى أيضا أن يستشير الأمراء من ليس أهلا لأن يستشار لهوان دينه عليه أو لجهله فيذهب رحمه الله لسد هذه الثغرة وذلك من أجل المصلحة فى الدين ولذلك نراه يقول : لولا أنى آتيهم ما رأيت للنبى صلى الله عليه وسلم فى هذه المدينة سنة معمولا بها[٣] .

هكذا كان الامام رحمه الله هدفه وغايته من دخوله على الخلفاء والأمراء والسلاطين أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ونصحهم ووعظهم

---

(١) القاضى عياض - ترتيب المدارك جـ١ ص٢٠٧-٢٠٨ ، والديباج المذهب - لابن فرحون ص ٢٧ .

(٢) المرجع السابق جـ١ ص ٢٠٨ ، ومناقب مالك للزواوى ص ٣١ .

(٣) المرجع السابق جـ١ ص ٢٠٨ .

وحثهم على الخير واجتناب الشر ، وفى عمله هذا رحمه الله نهج فى ذلك عدة أساليب وعدة طرق ، فمرة بالمخاطبة فى حضوره لهم ينصحهم ويعظهم وينكر عليهم ويوصيهم ، ومرة بالمراسلة ، وسنتناول هذه الأمور بايجاز ما أمكن ذلك .

أ - الاحتساب بالوعظ والنصح :

لم يأل الامام مالك رحمه الله جهدا من وعظ الخلفاء ونصحهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، وقد أبلغ رحمه الله فى نصح الخلفاء ووعظهم فكانت له مع هؤلاء الخلفاء وبالأخص : أبى جعفر المنصور وابنه المهدى وحفيده هارون الرشيد من الخلفاء العباسيين مواعظ حسنة مأثورة يلقيها عليهم عندما يجيئون الى الحجاز فى موسم الحج ، فكان يعظهم ويحثهم على مصالح المسلمين وينبههم على ذلك ولم يكن رحمه الله يتحدث معهم فى أمور تتعلق بمصلحته أو فى نفسه بل كان كل اهتمامه ينصرف الى العناية بشئون المسلمين والحرص على خيرهم وكف الشر عنهم وفى احدى جلساته مع أبى جعفر المنصور وعظه باقتفاء أحوال المسلمين والحرص على خيرهم والسهر على مصالحهم ،ولكن المنصور يجيبه اجابة من يدافع عن نفسه ويثبت له أنه قائم بهذا الذى يدعوه اليه مالك قائلا : (أليس اذا بكت ابنتك من الجوع جعلت الخادم تحرك الرحى لئلا يسمعها الجيران ؟ فقال مالك والله ما علم بهذا الا الله ، فقال له : فعلمت هذا ولا أعلم حال الرعية.[1] ومن ذلك أيضا أنه دخل على هارون الرشيد فحثه على مصالح المسلمين فقال له : (لقد بلغنى أن عمر بن الخطاب كان فى فضله وقدمه ينفخ لهم عام الرماده النار تحت القدور يخرج الدخان من لحيته وقد رضى

---

(١) القاضى عياض : ترتيب المدارك جـ١ ص ٢١٤ .

الناس منكم بدون هـذا)[1] .

هكذا كان الامام رحمه الله فى دخوله على الخلفاء لا لشىء الا - لنصحهم ووعظهم فى تفقد أحوال المسلمين وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، فلم يكن دخوله عليهم من أجل الرياء أو التقرب اليهم لينال من عطاياهم ويكسب رضاهم بل كان عمله ذلك احتسابا عليهم بأمرهم بالخير ونهيهم عن الشر وتعريفهم بالحق والخير ودلهم عليهم ونهيهم عن الشر وتحذيرهم عنه وناصحا لهم بتفقد أحوال الرعية من المسلمين وضاربا لهم الأمثال فى ذلك بما فعله أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم من أمثال عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأرضاه من تفقد أحوال المسلمين وعدلهم فى ذلك وتقواهم فى جميع أمورهم المتعلقة بأحوال المسلمين وعباداتهم وورعهم فى ذلك ، وكان رحمه الله فى وعظه هذا ونصحه لهم عن طريق المخاطبة لهم بالدخول عليهم فى مجالسهم ليكون أبلغ فى التأثير وأوجز فى التعبير وأعظم فى الهيبة ، وهذا بلا شك من أعظم أعمال المحتسبين خاصة اذا كانت بحضرة الخلفاء والملوك وهم مع ما يملكون من الجاه والسلطان والقوة ، ولكن اذا كان العالم مخلصا فى عمله ونيته لله وفى ذات الله لا يأبه بما يحصل لقوله ونصحه وموعظته ، اذا كان عمله لله واخلاصه فى ذلك لله لا يبتغى من وراء ذلك الا الأجر والثواب من رب العباد وصابرا على ما يناله من جراء ذلك محتسبا لله راجيا ثوابه وخائفا عقابه . ولم يقتصر رحمه الله بالوعظ والنصح بالمخاطبة والمشافهة بحضرة الخلفاء والملوك بل سلك فى ذلك مسلكا آخر عن طريق المراسلة يرسل اليهم برسائل يضمن فيها النصح والوعظ لهم يذكرهم فيها بالآخرة وما فيها من الثواب والعقاب ويحذرهم الاغترار بالدنيا وارتكاب المعاصى ويرغب

---

(١) القاضى عياض : ترتيب المدارك جـ١ ص ٢٠٨ .

لهم بفعل الخير والتزام السنه ويحذرهم من الظلم والوقوع فيه وأنه سبب لهلاك الانسان وغضب الرحمن ،وغير ذلك مما تضمنته رسائله للخلفاء في هذا المضمون وهى رسائل بلا شك من جوامع الكلم وساميات المعاني صالحة لأن يقرأها الخلفاء والعامة على السواء ، وهى مكتوبة فى أسلوب راق ونهج رفيع يشير الى ما يتمتع به الامام من بلاغة فائقة ومقدرة وافرة حين يكتب لمن أراد نصحه بذلك .

ومن رسائله سنقتصر على رسالتين سنذكرهما : -

الأولى هى : أنه رحمه الله كتب الى بعض الخلفاء كتابا يعظه فيه " أما بعد فانى كتبت اليك كتابا لم آل فيه رشدا ولم أدخر فيه نصحا تحميد الله وأدب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتدبر ذلك بعقلك وردّ فيه بصرك وأوعه سمعك وأعقله بعقلك وأحضره فهمك ولا تغيبن عنه ذهنك فان فيه الفضل فى الدنيا وحسن ثواب الله تعالى فى الأخرة. ذكر نفسك غمرات الموت وما هونازل بك منه وما أنت موقوف عليه بعد الموت من العرض على الله تعالى ثم الحساب ثم الخلود بعد الحساب اما الى الجنة واما الى النار وأعدّ له ما تسهل به عليك أهوال تلك المشاهد وكربها فانك لو رأيت أهل سخط الله وما صاروا اليه من أنواع العذاب وشدة نقمة الله وسمعت زفيرهم فى النار وتنهيقهم مع كلوح وجوههم وطول غمتهم وتقلبهم فى أدراكها على وجوههم لا يسمعون ولا - يبصرون يدعون بالثبور وأعظم من ذلك حسرة اعراض الله تعالى بوجهه وانقطاع رجائهم من روحه واجابته اياهم بعد طول الغم أن اخسئوا فيها ولا تكلمونى ، لم يتعاظمك شيء من الدنيا أردت به النجاة من ذلك ولا آمنك من هولة ولو قدمت فى طلب النجاة جميع ما لأهل الدنيا كان ذلك صغيرا ولو رأيت أهل طاعة الله وما صاروا اليه من كرامة الله ومنزلتهم مع قربهم من الله تعالى ونضرة وجوههم ونور ألوانهم وسرورهم بالنظر اليه

والمكانة منه والجاه عنده مع قربه منهم لتقلل فى عينك عظيم ما طلبت به الدنيا ، فاحذر على نفسك حذرا غير تقرير وبادر الى نفسك قبل أن تسبق اليها وما تخاف الحسرة فيه عند نزول الموت وخاصم نفسك لله تعالى على مهل وأنت تقدر باذن الله على جر المنفعة وصرف الحجة عنها قبل أن يوليك الله حسابها ثم لا تقدر على صرف المكروه عنها وجر المنفعة اليها ، اجعل الله من نفسك نصيبها بالليل والنهار ،ان عمرك ينقص مع ساعات الليل وأنت قائم على الأرض وهو يسار بك فكلما مضت ساعة من أجلك والحفظة لا يغفلون عن الدق والجل من عملك حتى تملأ صحيفتك التى كتب الله عليك ، فعليك بخلاص نفسك ان كنت لها محبّا فاحذر وما قد حذرك الله منه تعالى فانه يقول : (ويحذركم الله نفسه)[1] ولا تحقر الذنب الصغير مع ما علمت من قول الله تعالى : (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره)[2].وقال : (ما يلفظ من قول الاّ لديه رقيب عتيد)[3]. وحافظ على فرائض الله واجتنب سخط الله واحذر دعوة المظلوم واتق يوما ترجع فيه الى الله والسلام[4].

هكذا كان الامام رحمه الله لا يمل ولا يفتر عن نصح الخلفاء والولاة وأن فى رسالته هذه لما يغنى عن كل شيء فهى رسالة جامعة حاوية لما يحتاجه الانسان فى هذه الحياة من مواعظ لتنير له الطريق وتوقظ قلبه عن ساعة الغفلة وتجدد الفطره لدى الانسان لكى يثوب الى رشده ويعود الى الطريق المستقيم الذى لا اعوجاج فيه ، ان كل انسان محتاج لأن يذكّر بالموت والحساب والثواب والعذاب والبعث والجنة والنار والوقوف

---

(١) سورة آل عمران : الآية (٢٨) .
(٢) سورة الزلزلة : الآية (٧ - ٨) .
(٣) سورة ق : الآية (١٨)
(٤) القاضى عياض - ترتيب المدارك جـ١ ص ٢١٥-٢١٦ .

أمام الله سبحانه عاريا من كل قوة كان يتمتع بها فى الدنيا وخاليا من نفوذ وحيدا لا يفيده مال ولا بنون ولا يحميه جاه ، وانما الفوز بالأعمال الصالحة الخالصة لله والنجاة تكون بتقوى الله فى كل شئ فى الناس وفى العرض وفى المال واشاعة العدل ومنع الظلم والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على أن أكثر الناس حاجة الى المواعظ هم الخلفاء والملوك والحكام ، بل ان الحاجة أكثر ما تكون الى وعظ هؤلاء فان الحاكم منهم اذا ظلم قتل الأنفس ونهب المال واستباح العرض واعتدى على الأبرياء وجعل الأمن خوفا وقلب العدل ظلما وصير العمران خرابا وصادر فجعل الغنى فقيرا وزاد الفقير فقرا الى غير ذلك ما يفعله الحاكم الغاشم الظالم الذى لا يردعه رادع ولا يزجره زاجر . اذا فهم أكثر الناس احتياجا الى النصح والمواعظ التى تردعهم عن الوقوع فى ذلك ، وتنبههم وتوقظ ضمائرهم وتحيى قلوبهم وتدلهم الى الخير وتبعدهم عن الوقوع فى الشر وتأمرهم بالتمسك بهدى الاسلام وعراه فهم فى حاجة الى النصح ما أمكن ذلك . . وخيرا فعل امامنا رحمه الله بنصحه للخلفاء غير كال ولا مال من ذلك ولا هايب من حضرتهم بقول الحق ويذكرهم به ويكبت الشر وينهاهم عنه محتسبا ذلك اليوم وأى يوم ، يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم .

فهنيئا له على ما قدم من ذلك وجزاه عن ذلك خير الجزاء ونفعنا بعلمه آمين .

أما رسالته الوعظية الثانية - فهى : -

انه كتب لبعض الخلفاء كتابا فيه : اعلم أن الله تعالى قد خصك من موعظتى اياك بما نصحتك به قديما وأتيت لك فيه ما أرجو أن يكون الله تعالى جعله لك سعادة وأمرا جعل به سبيلك الى الجنة فلتكن رحمنا

الله وايّاك فيما كتبت اليك مع القيام بأمر الله وما استرعاك الله فى رعيته فانك لمسؤول عنهم صغيرهم وكبيرهم . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته .(١) وروى فى بعض الحديث أنه يؤتى بالوالى ويده مغلولة الى عنقه فلا يفك عنه الاّ العدل وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : والله ان هلكت سخلة بشط الفرات ضياعا لكنت أرى الله تعالى سائلا عنها عمر . وحج عشر سنين وبلغنى أنه كان ما ينفق فى حجة الا اثنى عشر دينارا ، وكان ينزل فى ظل الشجرة ويحمل على عنقه الدرة ويدور فى الأسواق يسأل عن أحوال من حضره وغاب عنه . وبلغنى أنه وقت أصيب حضر أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فأثنوا عليه فقال المغرور من غررتموه لو أن ما على وجه الأرض ذهبا لا افتديت به من أهوال المطلع . فعمر رحمه الله تعالى كان مسددا موفقا مع ما قد شهد له النبى صلى الله عليه وسلم بالجنه ، ثم مع هذا خائف لما تقلد من أمور المسلمين فكيف من قد علمت فعليك بما يقربك الى الله وينجيك منه غدا ،أو احذر يوما لا ينجيك فيه الا عملك ويكون لك أسوة بما قد مضى من سلفك وعليك بتقوى الله فقدمه حيث هممت وتطلع فيما كتبت به اليك فى أوقاتك كلها وخذ بنفسك فتعاهدها والأخذ به والتأديب عليه واسأل الله تعالى التوفيق والرشاد ان شاء الله تعالى .(٢)

وبعد هذه رسالة موجزة بليغة مؤثره ضمنها رحمه الله كل ما يحتاجه الانسان فى هذه الحياة من مواعظ بليغه ونصح مؤثر تنقذه من ساعة الغفلة الى سبيل الرشاد فهى كالزاد لمن أراد أن ينتفع ويتعظ فرحمه الله

---

(١) رواه البخارى - كتاب الجمعه - باب الجمعه فى القرى والمدن جـ١ ص٢١٥ ، ومسلم ٣٣ ، كتاب الأماره ٢٠٥ ،وأبوداود - اماره ١٢٠١ والترمذى - كتاب الجهاد ٢٧ ،وأحمد بن حنبل ٢ ،٥٤،٥٥ ،١٠٨ ،١١١ ،١٢١ .

(٢) القاضى عياض : ترتيب المدارك - جـ١ - ص٢١٦-٢١٧ .

لم يألو جهدا فى هذا السبيل الا وقام به سواء بحضرة الخلفاء أو عن طريق المراسلة فهذا عمله وديدنه معهم اذا اجتمع بهم رحمه الله لم يتكلم عندهم بما يحتاجه هو أو يتعلق بأموره الخاصة بل كان يحثهم على مصالح المسلمين وتفقدها كما فى هذه الرسالة ويضرب لهم المثل بما فعله عمر ابن الخطاب رضى الله عنه مع أنه مشهود له بالجنة . ومع ذلك يمشى بالأسواق لتفقد من حضر ومن غاب ويسأل عن أحوال المسلمين ويقول عن عمله هذا أنه لو هلكت سخلة بشط الفرات ضياعا لكنت أرى الله تعالى سائلا عنها عمر فهذه المقالة ان دلت على شىء فانما تدل على ما بلغه الفاروق من قمة العدل فى خلافته حتى شمل البهائم كما فى مقالته هذه .

فالامام رحمه الله يضرب لهم المثل بذلك ويقول أنه مع فعله هذا وقد شهد له الرسول عليه الصلاة والسلام بالجنة ومع ذلك خائفا من هول المطلع لأنه تقلد أمور المسلمين فيذكرهم بذلك حتى ينظروا واقعهم وما هم عليه وحال الصحابة وما كانوا عليه من العدل والتقى والزهد .

فرحمه الله لم يأل جهدا ولم يقصر فى بلوغ نصائحه للخلفاء وقد كان لعمله هذا ثمرة عندهم كما سنبين ذلك فى انكاره المنكر رحمه الله .

ب- الاحتساب بانكار المنكر وازالته :

تقدم أنه رحمه الله كان يعظ الخلفاء وينصحهم سواء كان ذلك بالمخاطبة لهم عند دخوله عليهم أو بالمراسلة وأنه لم يألو فى ذلك جهدا أو نصحا لهم . أما فى هذا الموقف فانه رحمه الله سلك سبيلا آخر من مراتب الاحتساب ألا وهو انكار المنكر الواقع وازالته . وقد وقع شئ من ذلك بحضرته عندهم فلم يتوانى رحمه الله ولم يداهن فى ذلك بل أنكر ذلك على ما يقع منه عندهم حتى يزال .

وسنتناول فى الكلام على ذلك بعض المنكرات التى وقعت وقد شاهدها بنفسه فأنكرها عليهم وما منهم الا الاستجابة لذلك وازالتها من ذلك ما يأتى :-

أنه دخل على أبى جعفر المنصور فرأى غير واحد من بنى هاشم يقبّل يده المرتين والثلاث فرزقنى الله العافية من ذلك فلم أفعل[1].

فلم يكن رحمه الله يلزم نفسه فى مجالس الخلفاء بتقاليد القصور وأشكال التحدث وقواعد التعامل معهم فتلك قواعد وضعت للعامة والخاصة باستثناء العلماء ، فلم يقبّل يدا كما فعل من كان حاضرا مجلس الخليفة من كبار بنى هاشم وغيرهم وليكن فى ذلك من كسر حلقة عادات الخلافة ما فيه . فلم يفعل رحمه الله ما فعل غيره وأنكر ذلك بقلبه رحمه الله .

ومن ذلك أيضا : أنه كان مرة جالسا مع أبى جعفر المنصور فعطس أبو جعفر فشمّته مالك فلما خرج أنكر عليه الحاجب ذلك وتهدده ان عاد لتشميته فلما كان بعد ذلك جلس عنده فعطس أبو جعفر فنظر مالك للحاجب ثم قال للمنصور أىّ حكم تريد يا أمير المؤمنين أحكم الله أم حكم

---

(١) أنظر الزواوى - مناقب مالك ص٥٢ ، والقاضى عياض : ترتيب المدارك جـ١ ص٢٠٨ وابن عبدالبر: الانتقاء ص ٤٢ ، نشر مكتبة القدسى عام ١٣٥٠هـ/ مصر .

الشيطان ؟ قال لا بل حكم الله . قال يرحمك الله[١].

فأنكر الامام رحمه الله ذلك الصنيع من حاجب الخليفة فى تهديده له اذا عاد لتشميت الخليفة اذا عطس لأن عادات التعامل مع الخليفة لم تكن تسمح بذلك ، ولكن الامام لا يأبه لشىء ما أنزل الله به من سلطان فهو يتبع حكم الله لا حكم الشيطان فجلس مرة ثانية عند الخليفة فلما عطس قال له كما تقدم تريد حكم الله أم حكم الشيطان يقصد بذلك موقف الحاجب فأجابه أبى جعفر بل حكم الله فشمته ولا شك أن الخليفة أبا جعفر المنصور - قد أدرك ذلك وأن فعل ذلك هو الواجب وقد أمر الشرع بذلك وأن ما عليه الحال فى حضرة الخليفة من عدم تشميته اذا عطس هو من الضلال الذى يجب اجتنابه . هكذا كان رحمه الله لا يمتثل لمعصيتة قط حتى ولو كان بحضرة الخليفة ، هذا ولا شك هو قمة الاخلاص وقمة التقوى وقمة الاحتساب الذى لا يشوبه شائبه ولا هدفه مصلحة دنيويه بل عمله ذلك كله لله الواحد القهار .

ومن ذلك أيضا : أنه أنكر على أبى جعفر المنصور رفع صوته فى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم . فقد ناظر أبو جعفر المنصور مالكا فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم فرفع أبو جعفر صوته فقال له مالك يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك فى هذا المسجد ، ان الله تعالى أدب - قوما فقال : (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى[٢] . ومدح قوما فقال : (ان الذين يغضون أصواتهم ... الآية .[٣] وذم قوما فقال : (ان الذين ينادونك ... الأية[٤] . وأن حرمته ميتا كحرمته حيّا فاستكان أبو جعفر وقال

---

(١) القاضى عياض : ترتيب المدارك جـ١ ص ٢٠٨-٢٠٩

(٢) سورة الحجرات : الآية (٢) .

(٣) " " : " (٣) .

(٤) " " : " (٤) .

له أبو جعفر ادعو مستقبلا القبلة أم مستقبلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم الى الله تعالى يوم القيامة بل استقبله واستشفع به الى ربك يشفعك قال الله تعالى : (ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم جاؤوك ... الآية [١][٢] .

هكذا كان موقف العالم من خليفته فالخليفة وقع فى ذلك من رفع صوته فى مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام وربما من غير أن يشعر بذلك لأن أبى جعفر المنصور فى حال مناظره مع مالك ولأنه كان بعد من العلماء ومحبى العلم ولكن شيخه مالك لم يتوانى فى انكار ذلك على أبى جعفر اجلالا لرسول الله ومسجده ولكنه انكار برفق فأعلمه بحكم ذلك وما نزل فى حكم ذلك من القرآن فما كان من أبى جعفر الا أن استكان لذلك وأقلع عن فعله .

هذا ما تقدم من انكاره على أبى جعفر المنصور أما ما أنكره على ابنه المهدى بعد أن أصبح خليفة للمسلمين وحفيده هارون الرشيد بعد أن أصبح أيضا خليفة بعد والده المهدى فهو ما يأتى : -

من ذلك أنه أنكر على المهدى أمره لغلامه تقديم الطست والابريق من أجل أن يغسل الامام مالك يده قبل الأكل فامتنع مالك عن ذلك وقال ان ذلك ليس من الأمر المعمول به ، ارفع يا غلام فأكل غير متوضئ[٣] .

ومن ذلك أيضا أنه أنكر الشرب فى قدح من زجاج به حلقة من فضه وذلك بحضرة الخليفة المهدى فامتنع عن الشرب فأمر المهدى بهذه الحلقة فقلعت فأتى له باناء آخر من فخار فشرب الامام فقد ورد فى ذلك :استسقى

---

(١) سورة النساء : الآية ٦٤

(٢) القاضى عياض : ترتيب المدارك - جـ١ - ص ٢١١-٢١٢ .

(٣) " " " " " ص ٢١٠

مالك عند المهدى فأتى بقدح زجاج فى أذنه حلقة فضه فأبى أن يشـــرب فأتى بكوز فخار فشرب فأمر المهدى بالحلقة فقلعت[1] .

هكذا كان الامام مخلصا فى انكاره المنكر مهما كان صغيرا أو كبـيرا فقد أريد تكريم الامام بقدح أنيق له حلقة من فضة ولكنه مع ذلك امتنـــع عن الشرب وشرب بكوز من فخار لأنه يلتزم بما يؤمن أنه الصواب ولم يفعـــل ذلك من قبيل التظاهر أو الفخر أو غير ذلك بل فعل ذلك حسبة لله لأن عنده لا فرق فى مجلس الخليفة أو فى غيره فى انكار ما يراه غير صـــواب أو ليس من سنن الاسلام . ونظرا لكونه فى عمله هذا مخلصا لله نرى - الاستجابة من الخلفاء فى ازالة هذه العادات والمنكرات التى ليست مـــن الاسلام فى شىء كما حصل من المهدى بأمره بالحلقة فقلعت من القـــدح فرحمه الله دائما له هيبته وجاهه عند السلاطين وغيرهم ينفذون أوامـــره فيما يطلب منهم فى صالحهم وصالح المسلمين .

أما فى انكاره على هارون الرشيد فمن ذلك : أن مالكا دخل مـــرة على هارون الرشيد فوجد بين يديه شطرنج منصوب وهو ينظر فيه فوقـــف مالك ولم يجلس وقال أحق هذا يا أمير المؤمنين ؟ قال لا قال فما بعـــد الحق الا الضلال فرفع هارون رجله وقال لا ينصب بين يدى بعد[2] .

هكذا كانت هيبته عند الخلفاء وشخصيته عندهم موقرا محترما ان - هارون الرشيد لم يكتف برمى الشطريج بعيدا فحسب بل أمر ألا ينصـــب بين يديه بعد ذلك وسواء صدق الرشيد فى عزمه بعد ذلك أم عـــاد لممارسة هوايته فى اللعب فان الموقف الذى وقفه الامام مالك يرحمه اللـــه يعتبر أمر عظيم وانجاز سلوكى جليل وانكار لمنكر بحضرة الخليفة وعلى الخليفة

---

(١) القاضى عياض : ترتيب المدارك جـ١ ص ٢١٣ .

(٢) المرجع السابق جـ١ ص ٢٠٨ .

نفسه ليدل دلالة قاطعة على شجاعته رحمه الله فى الحق وقوة ايمانه واخلاص نيته لذات الله سبحانه . ومن ذلك أيضا : أن هارون الرشيد أرسل اليه رسوله ينهاه أن يحدث بحديث معاوية فى السفرجل فامتنع عن ذلك وغضب من هذا الأمر فقام وتلى قوله تعالى : (ان الذين يكتمون ما أنزلنا ...الآية.[1] ثم قال والله لأخبرن بها فى هذه الصرفه واندفع فقال : حدثنا نافع عن ابن عمر قال كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأهدى اليه سفرجل فأعطى أصحابه واحدة واحدة وأعطى معاوية ثلاث سفرجلات وقال القن بهن فى الجنه[2][3] .

هكذا كان رحمه الله رجل موقف يصدع بالحق ولا يلين فى ذات الله ولا يستكين ، شديدا كل التشدد فيما كان له صلة بالدين من الذين يريدون أن يحدثوا بدعة أو يعطلوا مبدءا دينيا ولو كان ذلك صادرا من الخليفة كما فى امتناعه عن طاعة الخليفة هارون الرشيد فى الامتناع عن التحديث بحديث السفرجل . ومعروف أن معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه صحابى نسبه فى الأمويين وأول خليفة لهم ومعروف عداء بنى العباس للأمويين وما كان بينهم من الحروب والقتال ومن أجل ذلك أرسل هارون لمنع مالك من التحديث بذلك ولكن هيهات أن يستجيب خادم العلم لما عرف عنه من التقوى والصلاح والاخلاص وكان رحمه الله يعطى نفسه قدرها فى مجالس الخلفاء ولا يتخذ مكانا للجلوس حيثما اتفق وانما يعمد الى فرض وجوده والتنبيه الى مقامه حتى يهيأ له أكرم مكان بين الجالسين ويحترم نفسه اذا لقيهم وذلك من أجل أن يكون لموعظته أثرها ووقعها عليهم من ذلك (أنه لما قدم المهدى الى المدينة جاءه الناس مسلمين عليه فلما أخذوا مجالسهم استأذن مالك فقال الناس اليوم

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٥٩ .
(٢) رواه ابن ماجه : أطعمه ٦١
(٣) ابن فرحون - الديباج المذهب - ص٢٧ ، والقاضى عياض - ترتيب المدارك جـ١ ص٢٠٩

يجلس مالك آخر الناس فلما دنى ونظر الى ازدحام الناس قال يا أمير المؤمنين أين يجلس شيخك مالك ؟ فناداه عندى يا أبا عبدالله فتخطى الناس حتى وصل اليه فرفع المهدى ركبته اليمنى وأجلسه[1].

وكان رحمه الله كلما استمسك بأهداب السنة ازداد احتراما فى أعين الخلفاء وكلما وضع نفسه فى مكانها اللائق بها من الترفع والبعد عن التهافت والترخص كان ذلك أدعى الى مزيد من الاجلال وحقيق على من كانت هذه خصاله التى تقدمت أن يكون جدير بهذا الاحترام وهذا الاجلال اذا فلا غرو أن يعمد الخلفاء الى شيخهم مالك وعالمهم الموقر الى أن يسندوا اليه مراقبة عمالهم على أقاليم الحجاز وأن يكتب لهم بما يراه عنهم سواء كان ذلك فى نفسه أو فى ذات غيره أو سوء سيره فى الرعية عموما حتى ينالهم العقاب من الخليفة وأمرهم لولاتهم على هذه الأقاليم أن يسمعوا له ويطيعوه فى كل ما يعهد به اليهم من أمور الخير ونهييهم عن الشر فقد ورد فى ذلك أنه قال له أبى جعفر المنصور : (ان رابك ريب فى عامل المدينه أو عامل مكه أو أحد من عمال الحجاز فى ذاتك أو ذات غيرك أو سوء سيرة فى الرعية فاكتب بذلك أنزل بهم ما يستحقون وقد كتب الى عمالى بهذا أن يسمعوا منك ويطيعوا فى كل ما تعهد اليهم فانههم عن المنكر وأمرهم بالمعروف تؤجر على ذلك وأنت حقيق أن تطاع ويسمع منك[2].

---

(١) ابن فرحون : الديباج المذهب ص ٢٧ ،
والقاضى عياض : ترتيب المدارك - جـ١ - ص ٢١٠ .

(٢) القاضى عياض - ترتيب المدارك - جـ١ - ص ٢٠٩ .

جـ - الاحتساب بالوصية والاستشارة والفتيا :

تقدم أن الامام رحمه الله كان يحتسب على الخلفاء فى دخوله عليهم بالنصيحة والموعظة وبالانكار عليهم بعض ما يقع بحضرته عندهم من العادات والأمور المخالفة للسنه والدين ومرة بالمراسلة ، كما تقدم بيان ذلك ،ولكنه رحمه الله لم يقتصر على ذلك بل نهج وسلك مسلكا ثالثا فى احتسابه عليهم وذلك بوصيته لهم اذا طلبوا ذلك أو من تلقاء نفسه ومرة بالاستشارة اذا استشاروه يشير عليهم بالأصوب ويعلل ذلك لهم ومرة بالفتوى اذا طلبوا منه ذلك خلافا لمن حضر من أهل الفتيا والعلم فأفتى خلاف ما أفتوا به للخليفة .

أما أمثلة احتسابه بالوصية لهم فمن ذلك أنه لما قدم المهدى المدينة استقبله مالك وغيره من أشرافها على أميال ، فلما أبصر بمالك انحرف المهدى اليه فعانقه وسلم عليه وسايره ، فالتفت مالك الى المهدى فقال : يا أمير المؤمنين انك تدخل الآن المدينه فتمر بقوم عن يمينك ويسارك وهم أولاد المهاجرين والأنصار فسلم عليهم فان ما على وجه الارض قوم خير من أهل المدينة ولا خير من المدينة ، فقال له : ومن أين قلت ذلك يا أبا عبدالله ؟ قال لأنه لا يعرف قبر نبى اليوم على وجه الأرض غير قبر محمد صلى الله عليه وسلم ومن قبر محمد عندهم فينبغى أن يعلم فضلهم على غيرهم ففعل المهدى ما أمره به مالك[1] .

ومن ذلك أيضا أنه دخل على المهدى فقال له أوصنى فقال : (أوصيك بتقوى الله وحده والعطف على أهل بلد رسول الله صلى الله عليه

---

(١) القاضى عياض : ترتيب المدارك جـ١ ص ٢١٢ ،
والزواوى : مناقب مالك - ص ٢٧ - ٢٨ .

وسلم وجيرانه ، فانه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال المدينة مهاجرى وبها قبرى وبها مبعثى وأهلها جيرانى وحقيق على أمتى حفظى فى جيرانى فمن أحفظهم كنت له شهيدا أو شفيعا يوم القيامة ومن لم يحفظ وصيتى فى جيرانى سقاه الله من طينة الخبال[1][2] .

وعلى اثر هذه الوصية أخرج المهدى عطاءا كثيرا وطاف بنفسه على دور المدينة فلما أراد الخروج دخل عليه مالك فقال له يا مالك أما أنى محتفظ بوصيتك التى حدثتنى بها ولئن سلمت لاغفلت عنهم[3] .

ومن ذلك أيضا وصيته لهارون الرشيد بأهل المدينة وحقهم عليه فقال له هارون وما حقهم فقال له مالك هل تعلم أنه يعرف على وجه الأرض قبر نبى غير نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ؟ قال لا . قلت فلو أن أهل المدينة أخرجوا عنها وجب عليك أن تجىء بمن يسكنها ويجاور قبره وتجرى عليه الرزق فقال لى لو لم أملك من الدنيا الا ردائى هذا لواسيتهم به[4] .

هكذا كان الامام رحمه الله فى وصاياه للخلفاء يوصيهم فى أنفسهم فى الخوف من الله وتقواه فى جميع أعمالهم وأقوالهم ومن ثم يوصيهم برعيتهم خصوصا أهل المدينة جيران الرسول عليه الصلاة والسلام وأحفاد مناصيره فما كان من الخلفاء الا أن استجابوا لذلك كما كان من المهدى وهارون من خلفاء بنى العباس .

هذا ما كان منه فى وصاياه للخلفاء أما فى استشارته من الخلفاء

---

(١) القاضى عياض : ترتيب المدارك جـ١ ص ٢١٢ ، والزواوى : مناقب مالك ص٢٧-٢٨

(٢) رواه الترمذى - مناقب ٦٧ ، ومالك - الموطأ - مدينه - ٢ ، وأحمد بن حنبل ١ ، ١٨١ ، ٢ ، ١١٢ ، ١١٩ ، ١٢٢ ، ٢٨٨ .

(٣) القاضى عياض : ترتيب المدارك جـ١ ص ٢١٨ .

(٤) المرجع السابق جـ١ ص ٢١٨ .

وأخذ رأيه فيما يريدون فعله من الأمور فانه يجيبهم ويشير عليهم بما يرى أنه الأصلح والأوفق ودائما ما تكون استشارته ورأيه الذى يقطع به موافق للصواب فى الأمور التى يريدون فعلها ولكنهم لاجلالهم وتقديرهم للامام لا يقطعون فى ذلك شيء الا بعد أخذ رأيه واستشارته ، فان أشار بالفعل فعلوا وان أشار بالمنع ورأى خلاف ما يريدون امتنعوا عن ذلك وشكروا له موقفه ورأيه وعرفوا أنه على حق وصواب وباستقرائنا للنصوص الدالة على ذلك وجدنا أنهم يستشيرونه فى كثير من الأمور التى تتعلق بالحجاز وبالأخص فى المدينة المنورة من ذلك أنه لما قدم هارون الرشيد وقيل أحد الخلفاء أراد أن ينقض منبر النبى صلى الله عليه وسلم فقال لمالك ما ترى ؟ فقال ما أرى فغضب وقال : لقد زاد فيه معاويه . فقال مالك : ان المنبر اذ ذاك كان صلبا فلست آمن ان نقضته أن تذهب البركة منه . وفى رواية أن يتهافت فيتشاءم الناس منك ويقولون زال على يده أثر من آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أحسن الله جزاءك فترك ما كان نواه[1] .

ومن ذلك أيضا أن المهدى شاوره فى ثلاثة أشياء فى الكعبة أن - ينقضها ويردها على ما كانت عليه فأشار عليه أن لا يفعل ، وفى المنبر أن ينقضه ويرده على ما كان عليه وذلك حين أراد أن يرد المنابر كلها صغارا على منبر النبى صلى الله عليه وسلم فقال له مالك انما هو من طرفاء وقد سمر الى هذه العيدان يعنى التى زادها معاوية وأخشى أن نقضته أن - يخرب وينكسر ولولا ذلك لرأيت أن ترده الى حالته الأولى وشاوره فى نافع ابن أبى نعيم القارىء أن يقدمه للصلاة فأشار عليه أن لا يفعل وقال : هو امام أخاف أن يكون منه شيء من الغفله فيحكى عنه[2] .

---

(١) القاضى عياض : ترتيب المدارك جـ١ ص ٢١٤ .

(٢) " " " " جـ١ ص ٢١٤-٢١٥ .

هذا ما كان من استشارته عليهم أما فى احتسابه فى الفتيا عليهم فهى مواقف اتخذها الامام فى الاجابة على مسائل تخصهم وقد أفتى لهم من حضر من أهل العلم والفتيا بحكم ، أما هو فقد خالفهم فى فتواه وأفتى الخليفة بحكم مغاير لما أفتاه له جماعة من حضر منهم وذلك فى مسألة يمين على الخليفة هارون الرشيد حنث بها . أفتاه العلماء بأن عليه عتق رقبة أما مالك فأجاب بأن عليه صيام ثلاثة أيام فقال الرشيد لمالك فى صيغة تشبه الاعتراض أأنا معدم ؟ فمضى رحمه الله قائلا قال الله سبحانه : (فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام)[1] .

ويمضى الرشيد موجها القول لمالك فأقنعنى مقام المعدم فيقول له مالك بشجاعة العلماء وثقة الفقهاء : يا أمير المؤمنين كل ما فى يدك ليس لك فعليك صيام ثلاثة أيام[2] .

ان هذه الفتوى تعتبر من أصدق الفتاوى فى مثل حالات الخلفاء وهى من الجرأة بمكان ، ذلك أن عتق الرقبة بالنسبة الى خليفة يملك الكثير من الرقاب يعتبر أمرا يسيرا ومن ثم لا تكون الكفارة مجزئة فى مثل ذلك الموقف فالأصل فى الكفاره الاحساس بالجزاء وهى فى حالة العتق هذه لا تصور جزاءا هذا من ناحية أما من الناحية الأخرى فان الامام لا يرى أن أموال الخلفاء ملكا لهم وذلك لأسباب كثيرة أخفها وأيسرها أنها غير محددة - المعالم وأن الخصوصية الملكية غير واضحة فيها لتداخلها فى بيت المال ولذلك قال له كل ما فى يدك ليس لك . هكذا كان رحمه الله شجاعا فى الحق مخلصا فى علمه وفتواه محتسبا فى ذلك حاد الرأى نافذ البصيرة موافقا للصواب وملازما له دائما فى فتاواه وأعماله .

---

(١) سورة المائدة : الآية ٨٩ .

(٢) القاضى عياض - ترتيب المدارك جـ١ ص ٢١٩ - بتصرف .

ثانيا : الاحتساب على الولاة والأمـــراء :

تقدم أن الامام مالك رحمه الله كانت له مواقف احتساب على الخلفـاء سواء كانت نصح ومواعظ أو مواقف انكار لأفعـال وعادات ليست من الاسـلام بشيء أو مواقف استشاريه ووصايا وفتيا احتسابيـة .

واذا كانت هذه المواقف من مالك مع الخلفاء وهى من التشدد فـــى الحق وقولا وعملا بما قد رأينا ، فانه من باب أولى أن يكون له مواقـــف احتسابية على الولاة والأمـراء وهم الذين يولون عن طريق الخليفة أمـــراء وعمال على الأقاليم اذا كانت لهم مواقف تدعى الامام الى القيام بذلك ولا شك أن ما نهجه الامام فى احتسابه على الخلفاء من مراتب الاحتساب وتنوعـــه هو منهجه أيضا فى احتسابه على الولاة وسوف ان شاء الله سنتكلم على بعض المواقف التى وقفها رحمه الله منهم فى ذلك :

من ذلك أنه رحمه الله لا يألو جهدا فى نصح الولاة والأمراء فـــى تقوى الله فى أنفسهم ورعيتهم من تفقد أحوال الرعية فقد قال فى ذلـــك يوما ناصحا لبعض الولاة : افتقد أمور الرعية فانك مسؤول عنهم فان عمـــر ابن الخطاب قال : والذى نفسى بيده لو هلك حمل بشاطىء الفرات ضياعا لظننت أن الله يسألنى عنه يوم القيامـــه (١) .

وكان رحمه الله لا يهاب فى الدخول عليهم ويقول الحق فى حضرتهم غير مبال بما قد يحصل من جراء ذلك ، ولذلك قد أثر عنه أنه يقـــول ما دخلت على أحد منهم يعنى السلاطين الا أذهب الله هيبته من قلبى حتى أقول له الحـــق (٢) .

---

(١) القاضى عياض : ترتيب المدارك جـ١ ص ٢٠٨ .

(٢) المرجع السابق جـ١ ص ٢٠٨ .

ومن ذلك أيضا أنه نصح أمير المدينة محمد بن عبدالله بن سليمان الربعى فقال : اذا عرض لك أمر فيه كسر فاتئد وعاير على نظرك بنظر غيرك فان العيار يذهب عيث الرأى كما تظهر النار عيب الذهب[1] .

هكذا كان رحمه الله فى دخوله على الولاة والأمراء شجاعا فى قول الحق مخلصا فى نصحه محتسبا فى ذلك لله لا تأخذه فى الله لومة لائم لا هدف له من ذلك الا الأجر والثواب من رب العالمين لا يبتغى بذلك جاها ولا سمعه ولا رياءا واستكبارا مخلصا نيته وعمله لله الواحد القهار .

وكان من مواقفه أيضا أنه يحتسب عليهم بالانكار ينكر ما يقع منهم مخالفا للسنه من الأمور والعادات التى هى من عادات الأعاجم فقد روى عنه فى ذلك أنه دخل على والى المدينة عبدالملك بن صالح أمير المدينة فجلس ساعة ثم دعا بالطعام والوضوء فقال ابتدىء أولا بأبى عبدالله فقال له مالك ان أبا عبدالله يعنى نفسه لا يغسل يده فقال لم ؟ قال ليس هذا هو الذى أدركت عليه أهل العلم ببلدنا انما هو من زى الأعاجم وقد نهس عمر عن أمر الأعاجم وكان عمر اذا أكل مسح يده بباطن قدمه فقال له عبدالملك أأترك يا بأبا عبدالله ؟ فقال اى والله فما عاد الى ذلك عبدالملك بن صالح[2] .

ومن ذلك أيضا أنه أنكر على والى المدينة حمل السلاح والرايات فى خروجه لصلاة العيد ونظر اليهم فقال انا لله وانا اليه راجعون ما هكذا كان النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون . فبلغ ذلك والى المدينة عبد الملك بن صالح فأتاه فى المصلى فقال يا أبا عبدالله مالذى أنكرت ؟ قال ما رأيت معك انما أتى الناس الصلاة خاشعين يرجون المغفرة ولقد

---

(١) الزواوى : مناقب مالك ص ٣٠ .

(٢) القاضى عياض : ترتيب المدارك جـ١ ص ٢١٠

أخبرنى يحيى بن سعيد أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل عام الفتح مكه فى عشرة آلاف أو اثنى عشر ألفا وكان راكبا وحط راحلته وتحته قطيفة قيمتها أربعة دراهم منكس الرأى وهو يقول الملك لله الواحد القهار وكان يأتى المصلى للعيدين والاستسقاء متوكئا على عصا أو قوس منكسا رأسه خاشعا (١).

وكان رحمه الله أخشى ما يخشاه على الولاة المدح الكاذب الذى يجيء على ألسنة من يعيشون من حولهم فان ذلك المدح يزين لهم أعمالهم فيحصل الشيء حسنا فى نظرهم والقبيح جميلا فيرضون عنها فلا تتسع نفوسهم لارشاد مرشد ولا هداية هاد ولا وعظ واعظ ولذلك أثر عنه أنه لما أثنى على والى المدينة بحضرته غضب ثم التفت الى الوالى وقال اياك أن يغرك هؤلاء بثنائهم عليك فان من أثنى عليك وقال فيك من الخير ما ليس فيك أوشك أن يقول فيك من الشر ما ليس فيك فاتق الله فى التزكية منك لنفسك وترضى بها من يقولها لك فى وجهك فانك أنت أعرف بنفسك منهم فانه بلغنى أن رجلا امتدح رجلا عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال له النبى عليه الصلاة والسلام قطعتم ظهره أو عنقه لو سمعها ما أفلح . وقال النبى صلى الله عليه وسلم احثوا التراب فى وجوه المداحين (٢)(٣).

وكان رحمه الله يحتسب على الولاة بالافتاء اذا طلبوا منه ذلك فيمتنع عن افتائهم اذا رأى أنهم يولون من ليس أهلا لذلك ، فقد روى أنه طلب منه والى المدينة أن يفتيه فى مسألة فأبى مالك وامتنع عن أن يجيبه وقال له كيف أجيبك وقد وليت على المسلمين خيثم بن عراك فعزله فأفتاه مالك بعد ذلك (٤) ومن احتسابه أيضا فى ذلك أنه رحمه الله أفتى مالك عند والى المدينة بقتل رجل فأمر الوالى بضرب وسطه فتهيأ مالك للقيام وقال لا أقعد

---

(١) القاضى عياض : ترتيب المدارك جـ١ ص٢١٤

(٢) رواه مسلم ، زهد ٦٨ ، ٦٩ وأبوداوود أدب ٩٠ ، والترمذى زهد ٥٥ وابن ماجه أدب ٣٦ ، وأحمد بن حنبل ٦ ، ٥ (٣) المرجع السابق جـ١ ص٢١١

بمكان يمثل فيه بأحد . قال الله تعالى (فضرب الرقاب)[1] . قال الوالى أقعدأبا عبدالله لا تضرب وسطه أضربوا عنقه[2] .

هكذا كان رحمه الله محتسبا صابرا فى عمله هذا يدخل على الولاة واعظا وناصحا ومنكرا يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويشير عليهم ويحثهم على الخير ويرغبهم فيه وينكر عليهم ما يقع منهم أو بحضرتهم من الأعمال المنافيه لخلق الاسلام وقيمه وكان لنصحه لهم ووعظه اياهم وانكاره عليهم يستجيبون له ويتأثرون بوعظه وينفذون أوامره ويسترشدون بنصحه فجزاه عن الاسلام والمسلمين خير الجزاء وأن يكثر من أمثاله من الذين يغشون مجالس الأمراء والولاة فى أن يكونوا على صفته ناصحين لا مادحين وأن يكونوا بطانة صالحة لا بطانة سوء وشر توجه الأمير الى ما فيه الخير لرعيته وترشده الى جادة الصواب وتحذره من الشرور والوقوع فيها وتنير الطريق له فحينئذ يصلح الولاة ويكونوا خير مثال للوالى الصالح الذى يتفقد أحوال رعيته فى ظل شريعة الاسلام .

---

(١) سورة محمد : الآية (٤) .

(٢) القاضى عياض - ترتيب المدارك جـ١ ص ٢١٩ .

ثالثا :احتسابه على العامـــة :

لم يقتصر الامام فى أمره بالمعروف والنهى عن المنكر وفى الاحتســاب عموما على الخلفاء والولاة وانما شمل احتسابه أيضا العامة من الناس علـــى اختلاف طبقاتهم وأقاليمهم اذا رأى ما يوجب الانكار والنصح أنكر ونصح وحثه على الخير ورغب فيه ونهى عن الشر وحذر منه غير كال فى ذلك ولا مـــال محتسبا فى ذلك العمل لله مخلصا له لا يبتغى بذلك جزاءا ولا شكورا مـن أحد الا الأجر والثواب من رب العالمين الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

وباستقرائنا النصوص المدونة فى كتب المناقب والسير نرى مدى حرصـــه واخلاصه فى ذلك وخاصة فيما يتعلق بالذين يقحمون أنفسهم فى أمور ليسوا أهلا لها مثل الذين يفسرون القرآن أو من يدعى الانتساب الى بيت الرسول عليه الصلاة والسلام أو من يحاول يعطل حكم من أحكام الله وغير ذلك مـن الأمور التى يتعلق بها الناس وهم ليسوا أهلا لذلك أو بالأصل لا يجـــوز فعل ذلك وسنختار بعض مواقفه ورأيه فى هذه الأمور .

ومن احتسابه فى ذلك أنه رأى فتى يمشى مشية منكره فقام مالك فجعل يمشى الى جنبه يحكيه فوقف الفتى فقال له مالك مشيتى حسنه ؟ قال لا قال فلم تمشيها أنت ؟ قال لا أعود[1]. فمالك فى هذا الموقف نراه نهج منهجا آخر فى انكاره واحتسابه على هذا الفتى وذلك بتقليده فى مشيته بجانبـــه وهو يمشى وذلك من أجل أن يشعر الفتى بخطأه فى مشاه وأن هذه المشية لا تليق بالانسان العاقل المتزن ، ثم نراه يوجه للفتى السؤال عن مشيتـــه التى قلده بها فنرى الفتى ينكرها وهى بلا شك انكار لمشيته هو لأنها مشيتـه

(١) القاضى عياض : ترتيب المدارك جـ١ ص ٢٣٦ .

ثم نراه يتمالكه الخجل ويقول للامام لا أعود بعد ذلك كما نراه أيضا يحتسب على من ادعى الى نسب النبي صلى الله عليه وسلم وذكر أنه من ولد علي أو جعفر أو عقيل أو العباس أو أحد من بنى هاشم يضرب ضربا وجيعا ويطاف به حتى يشتهر عند الناس ثم يحبس حبسا طويلا حتى تظهر منه توبة فاذا لم يفعل به هكذا فهو استخفاف بنسب رسول الله صلى الله عليه وسلم (١).

فهو يحتسب رحمه الله على من ادعى النسب الى النبى عليه الصلاة والسلام أو الى آله وأهل بيته بالضرب والحبس وذلك لئلا يدعى أحد النسب الى الرسول ويكثر من يدعى ذلك احتراما واجلالا وتكريما للرسول عليه الصلاة والسلام ولئلا تتخذ النسبة اليه وسيلة لمقاصد دنيوية وتكون عرضة للعب والمتاجرة أو الاستهزاء وأن تكون بمنأى عن ذلك .

ومن احتسابه أيضا فى ذلك أنه يرى أن من شتم الرسول عليه الصلاة والسلام يقتل ومن شتم أحد أصحابه أدب ، وان شتم الصحابة وقال انهم على ضلال قتل أيضا (٢).

ومن ذلك أيضا أنه يرى أن من يفسر القرآن بغير علم بأصول التفسير وعلمه أن تضرب رأسه (٣).

هكذا رحمه الله لا تأخذه فى الله لومة لائم دائما سباقا لأن يغار لمحارم الله وينكر على مرتكبيها ويفتى بضرب من عمل ذلك اذا كان مما يتناول السب أو الشتم للصحابة والقتل اذا وجه ذلك للرسول عليه الصلاة والسلام أو من يبعث بأمور الدين ولا يتهاون فى ذلك .

ومن احتسابه أيضا على العامة أنا نراه رحمه الله شديدا فى اقامة حدود

---

(١) الزواوى : مناقب مالك ص ٣٦ .
(٢) " " " ص ٣٦ .
(٣) الاصبهانى - حلية الأولياء ص ٣٢٢ جـ ٦ - دار الكتاب العربى - بيروت - لبنان .

الله لا يتهاون بها أو يعفو عن مرتكبيها حتى تقام ويأخذ كل ذى حق حقه حتى وصل به الأمراء الى أن يمتنع عن التكلم بالعلم اذا لم تقم حدود الله فقد روى عنه فى ذلك أنه أحضره الوالى فى جماعة من أهل العلم فسألهم عن رجل عدى على أخيه حتى اذا أدركه دفعه فى بئر وأخذ رداءه وأبو الغلامين حاضران فقال جماعة من أهل العلم الخيار للأبوين فى العفو أو القصاص ، فقال مالك أرى أن تضرب عنقه الساعة ، فقال الأبوان ليقتل ابن بالأمس ونفجع فى الآخر اليوم ؟ نحن أولياء الدم وقد وعفونا ، فقال الوالى يا أبا عبدالله ليس ثم طالب غيرهما وقد عفوا فقال مالك : والله الذى لا اله الا هو لاتكلمت فى العلم أبدا أو تضرب عنقه وسكت وكلم فلم يتكلم فارتجت المدينة وصاح الناس اذا سكت مالك فمن يسأل ومن يجيب وكثر اللغط وقالوا لا أحد بمصر من الأمصار مثله ولا يقوم مقامه فى العلم والفضل فلما رأى الوالى عزمه على السكوت قدم الغلام فضرب عنقه فلما سقط رأسه التفت مالك الى من حضر وقال : انما قتلته بالحرابة حين أخذ ثوب أخيه ولم أقتله قودا اذ عفا أبواه وانصرف الناس وقد طابت نفوسهم حين رأوه بر فى يمينه اذ كان يعلم أنه لا يخنث[1] .

ومن ذلك أيضا أنه أتى له برجل خنق رجلا فقتله فقال رحمه الله اخنقوه حتى يموت كما فعل به وركبته صفرة وتشنق حتى مد به بصره فأخبروه بأنهم خنقوه فرجع الى وجهه الدم[2] .

هكذا كان رحمه الله شديدا فى اقامة حدود الله على مرتكبيها لا تأخذه فى الله لومة لائم ولا ينظر الى وجاهه أحد ولا قوته حتى يصل الأمر به الى أن يتلون وجهه من الحمرة الى الصفرة وأن يتشنج من هول الفاجعة والفعل ولا ترد عليه روحه أو يركد حتى تنفذ حدود الله فى مرتكبيها وحينئذ

---

(١) القاضى عياض - ترتيب المدارك جـ١ ص ١٨٣-١٨٤ .
(٢) المرجع السابق .

يرجع الى حالته الطبيعية بعد تنفيذ العقاب على مستحقه . وهذا ان دل على شيء فانما يدل على تقوى الرجل واخلاصه فى عمله واحتسابه لله لا يبتغى بذلك الجاه والسلطه وغيرهما من شهوات النفس وحظام الفانية . انما يدخر ذلك ليوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد .

هكذا كان رحمه الله عظيما فى علمه ، عظيما فى خلقه ، عظيما فى حياته كلها ، مخلصا لله فى عمله واحتسابه ، شديدا فى الحق لا تأخذه فيه لومة للائمين ولا شفاعة الشافعين ، يبتغى بذلك رضى رب العالمين غير آبه ولا مقصر فى ذلك ...

فجزاه عن الاسلام والمسلمين خير الجزاء ، ونفعنا بعلمه آمين ، يارب العالمين ..

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

xxxxxxxx

xxxxxx

الخاتمـــة :

الحمد لله رب العالمين ،والعاقبة للمتقين ، والصلاة والســـلام على من أرسله الله رحمة للعالمين نبينا محمد سيد الأولين والآخريـــــن وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه الى يوم الدين .. أما بعد :

نعود كما بدأنا فى بحثنا عن الامام مالك فنقول : قلنا فى الفصـــل الأول عن مولده أنه اختلفت الروايات فى مولده على عدة أقوال . الأشهـــر منها أنه فى سنة ثلاث وتسعين من الهجرة فى خلافة سليمان بن عبدالملك عام موت الصحابى خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنس بن مالـــــك وقد رجحناه كما تقدم لعدة أسباب منها أنه يروى عن الامام نفسه أنه قال به ولشهرته أيضا ثم تكلمنا عن حمله فى بطن أمه وأنه ورد فى ذلك روايتان احداهما أشهر من الأخرى . الأولى : أنه مكث فى بطن أمه ثلاث سنيـــن والثانية: قيل سنتان ،ورجحنا الأولى لأسباب منها انفرادها فى بعـــــض كتب المناقب والسير ولورودها من الامام نفسه وتصريحه بذلك . ثم تكلمنـــا عن مكان ولادته وأنه ولد فى المدينة وقيل بذى المروه شمال المدينـــة . ثم تكلمنا عن نسبه وأنه اختلف فيه فقد ورد فى ذلك ثلاث روايات . الأولى : وهـــى الأشهر والأرجح أنه عربى يمنى الأصل والمنشأ . الثانية : أنه مولى لبـــنى تيم وهو قول ابن اسحاق وروى أيضا عن الزهرى فهو على هذا القول مولى من الموالـــى . الثالثة : أنه قرشى يلتقى نسبه بالرسول عليه الصلاة والسلام عند مره ابن كعب وليس يمنى الأصل .

ثم رجحنا الرواية الأولى وبينا سبب ذلك . ثم بعد ذلك تكلمنا عن نسب أمه وأنه قد ورد فى ذلك روايتان :

الأولى : أنها أزديه فتكون على هذا القول عربية الأصل ،ويكون اسمهـــا هى : العالية بنت شريك بن عبدالرحمن بن شريك الأزدية .

الثانية : أنها مولاة لعبيد الله بن معمر واسمها طليحه .

ثم تكلمنا بعد ذلك عن جد الامام الأعلى وهو أبو عامر بن عمر وأنه من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم شهد المغازى كلها خلا بدرا ، وقيل أن اسمه عمر . ولم يلق الرسول عليه الصلاة والسلام سمع عثمان بن عفان فيكون على ذلك تابعى مخضرم .

ثم بعد ذلك تطرقنا الى جد الامام أبو أنس مالك بن أبى عامر وقلنا انه من كبار التابعين روى عن جمع من الصحابه منهم عمر وطلحه وعائشه وأبى هريرة رضى الله عنهم وأنه أحد الأربعة الذين حملوا عثمان ابن عفان رضى الله عنه الى قبره وغسلوه وكفنوه وأن عثمان أغزاه أفريقيا ففتحها وأنه من الذين يكتبون المصاحف حين جمع عثمان المصاحف وأنه كان من الذين يستشيرهم عمر بن عبد العزيز وأن موته كان سنة اثنتى عشرة ومائة ، له من الأولاد أربعة : أنس أبو مالك الامام ، وأبى سهيل نافع ، والربيع وأويس جد أبى أويس أبى اسماعيل وأبى بكر . وأنه روى عنه بنوه أنس وأبو سهيل نافع والربيع .

ثم تكلمنا عن أبو مالك الامام وهو أنس بن مالك وأنه كان مقعدا يعيش من صنعة النبل وأن ابنه روى عنه حديث الغسل واللباس .

ثم بعد ذلك تكلمنا عن نشأة الامام وبيّنا أنه نشأ منذ صغره فى بيت علم اشتغل بعلم الأثر ورواية الأحاديث وفى بيئة كلها للعلم والحديث والأثر وهى المدينة المنورة ، ثم بيّنا دوره فى توجيه الغلام وتنشأته فى حب العلم وترغيبه الى ذلك وتشجيعه الى مواصلة ذلك .

ثم تكلما بعد ذلك عن الحالة السياسية فى عصره وأنه عاصر فى وقت خروجه وحياته دولة بنى مروان ودولة العباس وما حصل فيهما من فتن واضطرابات وما أعقبه من الاستقرار ثم ذكرنا أن حياته فى العهد الأموى

تمثل فترة تكوين عقله وتفكيره وآرائه وأن حياته فى العهد العباسى فترة انتاجه والاستفادة من علمه وتبادل ثمرات الفكر مع الصحاب وتكوين التلاميذ ثم بينا أن ما شاهده من اضطرابات وفتن وما نمى الى علمه من ذلك قبل وجوده وبعدها قد بغض الى نفسه كل خروج على الحكام وأنه يرى اصلاح الرعية أصلا لاصلاح الحكام وأنه نزع بطبيعته الهادئة الى حياة الاستقرار وأنه لم يقف من بنى أميه موقف بعض العلماء الآخرين الذين أنكروا جانبا من أعمالهم وكذلك موقفه من بنى العباس وأنه أنكر فى البداية الوقائع الدامية التى وقعت فى بداية حكمهم ولكنه سرعان ما عاد الى هدوءه بعد استقرار الأمور واستتباب الأمن فى عهد هارون الرشيد وما وجد من خلفاء بنى العباس من حرصهم الشديد على مجالسة العلماء والتقرب اليهم والاستماع لنصحهم ورغبتهم فى الاتصال به والاستماع لنصحه ومشورته .

ثم تكلمنا عن طلبه للعلم وبينا أنه بدأ فى ذلك صغيرا حيث رؤى فى حلقة ربيعه وفى أذنه شنف ثم بينا أنه أخذ العلم وجلس الى شيوخ كثيرين ثم بينا أنه لازم شيوخا من هؤلاء خصهم أكثر من غيرهم فى المجالسة وتأثر بهم وتأسى بهم وأنهم ساهموا فى نضجه وتكوينه ثم تطرقنا الى الحديث عنهم وما أخذ عنهم الامام وسيرته فى ذلك معهم وما رواه عنهم وهؤلاء الشيوخ هم :

ربيعه الرأى - وابن هرمز - وابن شهاب الزهرى - ونافع مولى بن عمر - وأبو الزناد - ويحيى بن سعيد الأنصارى - وابن المنكدر - وجعفر الصادق ، ثم تطرقنا الى طريقته فى أخذه العلم وتلقيه من شيوخه وجلوسه لذلك وأنها لا تخلو عن طريقتين هما :

الأولى : بالتلقى من أفواه الرجال لا من كتب مسطوره قد دون فيها العلم وأنه اعتمد فى ذلك على قوة حافظته وأنه كان يستخدم خيطا من أجل ذلك يعقده عندما يحدث شيخه بن شهاب بكل حديث عقد عقده حتى لا يند منها

شيء عنه وحتى يعرف مجموعها .

الثانية : كتابة ما يلقى عليه وتدوينه وأنه كان يذهب الى شيخه ابن شهاب وبيده الألواح يكتب فيها ما يسمع من شيخه وأن شيخه يجذب منه الألواح لاختباره فيما ألقاه اليه فيجده قد وعى ذلك وحفظه فيثنى عليه قائلا قم فأنت من أوعية العلم .

ثم تكلمنا عن مؤلفاته وقد ذكرتها كتب مناقبه وأنها رويت عنه بروايات غير مشهورة وأنها تنتهى فى رواياتها على انفراد واحد من أصحابه وأتباعه أو اثنان منهم وأنها لم تكن لها الكثرة فى رواياتها عنه حتى تبعدها عن مكان الريب فى نسبتها له وليست لها الشهرة التى تجعلها أمرا ثابتا فى التاريخ لا يصح الشك فيه من غير سند يقدح فى نسبتها اليه وقد استثنينا من ذلك كتابه الموطأ الذى استفاظ ذكره واشتهر عنه وتلقاه الناس بالقبول عنه وثبتت نسبته اليه وتأليفه له وهذه المؤلفات هى كتاب فى النجوم وحساب مدار الزمان ومنازل القمر ورسالته فى الأقضيه كتب بها الى بعض القضاة عشرة أجزاء ، ورسالته الى أبى غسان محمد بن مطرف فى الفتوى ، ورسالته الى هارون الرشيد المشهورة فى الآداب والمواعظ ،وكتابه من التفسير لغريب القرآن ، وأيضا كتاب السر من رواية بن القاسم ،ورسالته الى الليث ابن سعد فى اجماع أهل المدينه بالاضافة الى ذلك كتابه الموطأ السابق ذكره .

ثم تكلمنا بعد ذلك عن وفاته رحمه الله وأنه اختلف الرواة فى تحديد السنه التى توفى فيها الامام وفى أى وقت من ذلك فقيل سنة ١٧٩ هـ وهو الأشهر والأرجح وقيل سنة ١٨٠ هـ وقيل ١٩٨ هـ ورجحنا الأولى لشهرتها ورجحانها من قبل الرواة . ثم اختلفت فى أى وقت من ذلك فقيل فى شهر ربيع الأول فى اليوم الرابع عشر منه وقيل لعشر مضت منه وقيل لثلاث خلون

منه وقيل لثلاث عشرة منه وقيل لاحدى عشرة منه وقيل فى اثنتى عشرة من رجب ثم بينا الصحيح من ذلك أنه ما قاله القاضى عياض فى ذلك من أنه فى ربيع الأول سنة ١٧٩هـ يوم الأحد لتمام اثنتين وعشرين يوما من مرضه .

ثم بينا أن الذى غسله ابن كنانه وابن أبى زنبر وصلى عليه عبد العزيز ابن محمد بن ابراهيم بن على بن عبدالله بن عباس خليفة أبيه على المدينة ومشى فى جنازته وحمل نعشه وبلغ كفنه خمسة دنانير . ثم بينا مقدار سنه عند وفاته على اختلاف فى ذلك فقيل سنه عند وفاته خمس وثمانون سنة وقيل أربع وثمانون سنة وقيل سبع وثمانون سنه وقيل ست وثمانون سنه ،وقيل تسعون سنه ،وقيل تسع وثمانون سنه . ثم بينا أرجحها وهو أن عمره ست وثمانون سنه نظرا لتحديد مولده ووفاته على الأشهر والأرجح رحمه الله .

ثم تكلمنا فى الفصل الثانى عن احتساب الامام فى مجال العلم والفتيا والقضاء وبدأنا أولا فى احتسابه فى طلبه العلم وتعليمه وجلوسه لذلك.وبينا فى ذلك أن عمله فى ذلك احتسابا لله واخلاصا له وأنه سلك فى ذلك أمورا تثبت ذلك وتبين أن المراد من عمله هذا هو الاحتساب لله لا يريد بذلك علوا ولا استكبارا ولا جاها ولا سمعه وهى بلا شك أمور وعلامات تميز المحتسب من غيره فى هذا المجال فقد بينا فى احتسابه لطلب العلم أنه سلك فى ذلك أمور مكنته من طلبه وجعلته يفوق أقرانه فى ذلك فقد تحلى بالصبر والجلد والمثابرة ومغالبة المعوقات فى الوصول الى الغاية التى ينشدها حتى أفضى به الأمر الى أن ينقض سقف بيته وأن يبيع خشبه كل ذلك من أجل طلب العلم وأن لا يعوقه فى ذلك عائق وهذا بلا شك بعلامة مميزة لاحتساب الرجل واخلاص نيته فى عمله لله لا يريد بذلك جاها ولا سمعه ولا عرضا من أعراض الدنيا ومن ذلك صبره فى الأوقات والذهاب فى الأيام شديدة الحرارة لا يظله شىء دون الشمس ينتظر أشياخه حتى يخرجوا اليه ومثله كذلك فى الأيام الباردة على أعتاب

أبوابهم حتى يخرجوا ويأذنوا له بل ويتزاحم مع أقرانه على أبوابهم حتى يصل الأمر بهم الى التدافع عند الدخول من أجل الاسراع فى الجلوس فى الأماكن القريبة من الشيخ مثل ما حصل له مع شيخه ابن هرمز ونافع وابن شهاب الزهرى رحمهم الله بل انه يتحين الفرص التى يخلوا فيها أشياخه وينقطعون فيها عن الناس حتى يخلو له الجو فى الجلوس عليهم وأخذ ما يريده منهم دون مضايقة أحد من أقرانه وكذلك نجده يصبر على ما فيهم من حده - ويتلقاها بصدر رحب ، كما نجده أيضا أخلص فى طلبه ولازم الاخلاص فى ذلك مما مكنه ذلك من ادراكه للحقائق وفهمه للحديث وكتاب الله تعالى لا رياء فيه ولا سمعه ولا جاه . كما نجده أيضا أنه لم يجلس على كل من جعل له حلقة للتدريس أو التف حوله الرجال وذلك لأنهم لم يكونوا من أصحاب هذا الشأن يعنى الاتقان والورع فما كان من هؤلاء جلس له والا فلا حتى ولو كانوا أهل زهد وخوف من الله ومن أجل ذلك ترك أناس ما أخذ عنهم وأنهم لو اقتنوا على بيت مال لكان كل واحد منهم أمينا ومع ذلك لم يأخذ عنهم لأنهم لم يكونوا من أصحاب هذا الشأن يعنى العلم والاتقان كما كان شديدا فى انتقاءه للرجال وانتقائه لهم فلا يأخذ من صاحب بدعه أو من فى عمله أو فعله شىء من فعل العامة أو غير مناسب لمقام العلم فانه لا يتوانى فى ترك الأخذ عنه .

أما فى تعليمه وجلوسه لذلك فلا شك أنه سلك أمورا جعلت منه اماما محتسبا مهابا مخلصا فى عمله ذلك لله تعالى لا يريد من ذلك التكسب أو الارتزاق ولا الجاه والسمعه سواء من الخلفاء أو الأمراء أو غيرهم. ولذلك نجده لم يجلس للدرس الا بعد أن استشار غيره من شيوخه الذين سبقوه فى العلم وأخذ منهم ذلك هل هو لذلك أهلا أم لا ؟ فأجابوه فى ذلك . وصلاحيته لذلك وأكثروا من الثناء عليه ثم أنه لم يحدث بكل ما سمعه من مشايخه ولم يبلغ كل ما وعاه وحفظه لتلاميذه لا لشىء الا أنه لا يلقي

الا ما يرى فيه مصلحة الناس ونفعهم وما عليه العمل فى المدينه وما يستقيم مع مقاييس نقده فى الفحص فما كان صحيحا ألقاه وما كان غير ذلك خبأه وامتنع عن القائه كما أن بعضها ليس من الفائدة أن يحدث به لما يلحق من تعليمه المضره مع أنه يرجى منه النفع والمصلحة لأن الناس لا يستطيعون أن يعوه ويفهموه فيفهموه على غير معناه كالرد على أهل الأهواء . كما أنه لا يكثر من القاء الأحاديث واجابة المسائل وذلك خوفا من الوقوع فى الخطأ وخشية من الغلط ومجانبة الحق والصواب فى ذلك ولأجل أن تعم الفائدة اذا قل التحديث بذلك . كما كان لا يحدث الا على طهارة اجلالا وتوقيرا لحديث الرسول عليه الصلاة والسلام ولا يحدث الا جالسا ويمتنع عن ذلك قائما أو ماشيا تأدبا لحديث الرسول وتوقيرا لها ويلبس أحسن الثياب ويتطيب ويتعمم ويبخر مكان العلم من أجل ذلك والتزم فى مجلسه الوقار والسكينة واجتناب لغو الكلام وفحشه ليس فى مجلسه من المراء واللغط ولا رفع صوت قط وأنه من اخلاصه فى ذلك يصبر على ما يصيبه من المحن والمصائب فقد روى أنه لدغته عقرب ستة عشر مرة وهو يتغير لونه ومع ذلك يصبر لم يقطع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كان موقفه من خلفاء بنى العباس عندما يطلبونه أن يقدم اليهم فى مكه عندما يأتون فى موسم الحج لتعليمهم والأخذ منه يمتنع عن ذلك ويرد عليهم بأن العلم يزار ولا يزور كل ما تقدم من هذه الأمور التى سلكها وأنهجها والتزم بها كلها صفات المحتسب الذى يبتغى بعمله الدار الأخرة وليس الجاه والمنصب والمال وهى بلا شك أمور وصفات تميز المحتسب فى ذلك من غيره الذى قصده غير ذلك .

ثانيا : فى احتسابه فى مجال الافتاء والقضاء فلا شك أنه نهج فى ذلك أمورا تدل على احتسابه فى ذلك واخلاص نيته فيه .من ذلك أنه لم يجلس لذلك من تلقاء نفسه بل شاور أهل العلم والصلاح من مشايخه فى ذلك كما تقدم وأنهم أجابوه بصلاحيته لذلك وأهليته ولذلك نجده فاق مشايخه وأقرانه

فى مسائل الفتيا ووافق الصواب فى ذلك عندما سئلوا فى مسائل وهو معهم وحكم على أصحابها بفتواه كما أنه التزم الافتاء فيما يقع من المسائل دون أن يفرض خشية أن يضل وأن يبعد عن سنة الرسول عليه الصلاة والسلام ومن ذلك أيضا أنه التزم الأناة فى الافتاء ويفكر التفكير الطويل العميق فى المسألة قبل أن يجيب ولا يسارع فى ذلك خوفا أن يجره ذلك الى الوقوع فى الخطأ كما كان يتحرز من أن ينص فى فتواه بحل أو حرمه تورعا فى ذلك مقتفيا أثر السلف ومنهجهم فى ذلك الا ما بان له نص فى الكتاب والسنه وكان يعقب على فتواه ان نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين كما أنه لا يفرق بين مسائل العلم من ناحية الأهمية ولذلك أنكر على الذى سأله لما قال له مسألة خفيفة سهلة وقال ليس فى العلم شىء خفيف واستشهد بقوله تعالى (انا سنلقى عليك قولا ثقيلا) . كما كان أيضا يكثر من قول لا أحسن ولا أدرى تورعا فى الفتوى واخلاصا فى ذلك خوفا من الوقوع فى الخطأ وذلك اذا أعمل فكره ولم يصل فى تفكيره الى شىء ولم يكن ذلك من عجز مطلق بل يقول ذلك عندما يكون الذى وصل اليه ظنا لا ينبغى اعلانه أو لم يجد لهذه المسألة شبيها فيما سمعه من فتاوى الصحابه . ومن ذلك أنه لاقى من جراء افتاءه بما يراه أنه الحق والصواب النكال والمحن فى الضرب بالسياط ومده حتى انخلعت كتفاه وذلك لأنه أفتى بحديث ليس على مستكره طلاق فوشى به الأعداء الى والى المدينة من قبل بنى العباس بأنه يعنى بهذا الحديث بأنه لا يرى بيعة بنى العباس فضرب من أجل ذلك كل ما تقدم من هذه الأمور التى نهجها وسلكها فى فتواه تدل دلالة واضحة على عظيم احتسابه فى عمله واخلاصه فى ذلك لله وهى علامات مميزة للمحتسب من غير المحتسب .

أما الفصل الثالث فقد تكلمنا فيه عن الاحتساب من جانب الامام على الخلفاء والولاة والعامة بادئين أولا بالخلفاء فقد كان رحمه الله يخشى

الخلفاء ويدخل عليهم ناصحا وواعظا يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحثهم على مصالح المسلمين والعناية بشئونهم وذلك مرة بالمخاطبة عند حضوره اليهم ومرة بالمراسلة يعظهم فيها ويذكرهم بالآخرة وما فيها من الجزاء والحساب والجنة والنار ويحذرهم الاغترار بالدنيا والاصرار على المعاصى والظلم ويحثهم على مصالح المسلمين وتفقد أحوالهم ضاربا لهم الأمثال بالصفوة من الصحابة الذين تقلدوا أمور المسلمين آمرا لهم باقتفاء آثارهم وأعمالهم فى ذلك ثم نراه أيضا يدخل عليهم ويحتسب عليهم بانكار المنكر الذى يقع بحضرته ويأمر بازالته غير آبه ولا جياش فى قول كلمة الحق ولو كان ذلك بحضرة الخليفة ويبين لهم الحق فى ذلك وأن هذا الفعل غير جائز ولا وارد فى الاسلام ثم نراه أيضا غير ممتثل لما قد يأمروه فى ترك عمل من السنه وهو نهيهم له عن التحديث عن الحديث الذى فيه ذكر معاويه بن أبى سفيان والذى فيه أن النبى صلى الله عليه وسلم قد أعطاه ثلاث سفرجلات وقال القن بهن فى الجنه نراه غضب من ذلك وقام واستشهد بالآية فى قوله تعالى : (ان الذين يكتمون ما أنزلنا .. الآيه) كذلك وغير ذلك كثير من انكاره للمنكر عليهم قد بينا ذلك وأفضنا فيه فى موضوعه ثم نراه فى فعله ذلك معهم يعطى نفسه قدرها فى مجالس الخلفاء فلا يجلس الا - بجانبهم ويحترم نفسه اذا لقيهم وذلك من أجل أن يكون لموعظته أثرها فيهم ووقعها عليهم وكان كلما استمسك بأهداب السنه ازداد احتراما فى أعينهم وكلما وضع نفسه فى مكانها اللائق بها من الترفع والبعد عن التهافت والترخص كان ذلك أدعى الى مزيد من الاجلال منهم ولذلك تراهم يسندون اليه مراقبة عمالهم على أقاليم الحجاز وأن يكتب لهم بما يراه عنهم مقصرين فيه سواء بحق الرعية أو بحق نفسه ونراهم يكتبون الى عمالهم الى طاعته واتباع مشورته وأن يسمعوا له فيما يأمرهم به من الخير وينهاهم عن الشر ثم نراه أيضا يوصى الخلفاء بتفقد أحوال الرعية وطاعة الله فيهم وإذا طلبوا

الأصلح والأوفق ونراهم يستجيبون له ويصغون لرأيه ثم نراه يفتى لهم اذا طلبوا منه ذلك ويخالف من حضر من العلماء فى فتياهم للخليفة كما حصل له مع هارون الرشيد لما حنث فى يمين وأفتاه من حضر من العلماء من أقرانه أن عليه العتق ولكنه خالفهم فى ذلك وقال بل عليك الصيام وذلك لكونه يرى أن المال الذى بيد الخليفة ليس ملكا له خالص وأن اعتاقه للرقبة أمر ميسور لمن مثله يملك الرقاب الكثيره والأموال الوفيرة ولكن الكفارة فى الصيام للخليفة يكون أبلغ فى الردع والزجر ثم نراه ثانيا أيضا يحتسب على الولاة ويتبع نفس الاسلوب الذى اتبعه مع الخلفاء وينصحهم ووعظهم بحضوره اليهم وكذلك ينكر عليهم ما قد يقع من المنكرات عندهم بحضرته ويأمر بازالتها وينهاهم عن الاغترار بالمدح الكاذب الذى يصدر من الذين يعيشون معهم ومن حولهم وذلك لكونه يزين لهم أعمالهم فيجعل القبيح جميلا والشين حسنا فى نظرهم مع أنه خلاف ذلك فلا تتسع نفوسهم لارشاد مرشد ولا هداية هاد ولا وعظ واعظ وكذلك نراه ثالثا يحتسب على العامة يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر وينكر عليهم اذا رأى عليهم ما يوجب الانكار وينصحهم ويحثهم على الخير ويرغبهم فيه وينهاهم عن الشر ويحذرهم عنه فنراه ينكر ما يقع به الناس من العادات التى لا تليق بالعقلاء وليست من صفات المسلم ثم نراه يؤدب كل من يدعى النسب الى النبى عليه الصلاة والسلام اجلالا واحتراما له ولئلا يتخذ ذلك وسيلة لأهداف ومقاصد دنيويه وتكون عرضة للعب والمتاجرة والاستهزاء ويحتسب أيضا على من يشتم الصحابه أو النبى بالقتل والضرب اذا أصر على ذلك عامدا له ثم نراه شديدا فى اقامة حدود الله لا يتهاون بها أو يعفو عن مرتكبيها حتى تقام على أصحابها محتسبا بذلك العمل فيما تقدم لله سبحانه مخلصا له راجيا عفوه وخائفا عقابه . فجزاه عن الاسلام والمسلمين خير الجزاء ونفعنا بعلمه آمين ..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...

بسم الله الرحمن الرحيـــم

" فهرس الموضـــوعات "

الموضـــــــــوع	رقم الصفحة
المقدمـــة .	١
الفصل الأول : حياته ونشأته .	٤
مولده ـ حمله فى بطن أمه ـ مكان ولادته .	٤
حمله فى بطن أمه .	٥
مكان ولادته .	٦
نشأته .	١٣
الحالة السياسية فى عصره .	١٦
طلبه العلم .	١٩
مؤلفاتـــه .	٣٤
وفاتـــه .	٣٥
الفصل الثانى : احتسابه فى العلم والفتيا والقضاء .	٢٨
أولا : الاحتساب فى طلب العلم وتعليمه .	٢٨
ثانيا : الاحتساب فى مجال الافتاء والقضاء .	٥٩
الفصل الثالث : الاحتساب على الخلفاء والولاة والعامة .	٧٧
أولا : الاحتساب على الخلفاء ـ ويشمل :	٨١
أ ـ الاحتساب بالوعظ والنصح .	٨٣
ب ـ الاحتساب بانكار المنكر وازالته .	٩٠
جـ ـ الاحتساب بالوصيه والاستشارة والفتيا .	٩٦
ثانيا : الاحتساب على الولاة والأمـراء .	١٠٠
ثالثا : الاحتساب على العامـة .	١٠٤
الخاتمـــة .	١٠٨

" بسم الله الرحمن الرحيم "

" فهرس المصـــادر والمراجـــع "

م	اسم الكتـــاب	المؤلـــف	الطبعـــة	تاريخـــا	الناشـــر
١	سير أعلام النبلاء	محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى	الأولـــى	١٤٠١هـ/١٩٨١م	مؤسسة الرسالة - بيروت
٢	طبقات الحفـــاظ	جلال الدين عبد الرحمن السيوطـــى	"	رجب أغسطس ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م	مكتبة وهبه- عابدين - القاهرة
٣	تذكرة الحفـــاظ	محمد بن احمد بن عثمان الذهبى			دار احياء التراث العربى - بيروت
٤	ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة اعلام مذهب مالك	للقاضى عياض			منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت
٥	تزيين الممالك بمناقب سيدنا مالك	جلال الدين السيوطى	الأولـــى	١٣٢٥هـ	المطبعة الخيرية/السيد عمر حسين الخشاب
٦	مناقب مالـــك	عيسى بن مسعود الزواوى	"	"	" " "
٧	الديباج المذهب	ابن فرحون			دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان
٨	الانتقـــاء	ابن عبد البر		١٣٥٠هـ	مكتبة القدس - القاهرة
٩	مالك بن أنس	مصطفى الشكعه	الأولـــى	١٤٠٣هـ/١٩٨٣م	دار الكتاب اللبنانى - بيروت
١٠	مالـــك	محمد أبو زهـــرة			دار الفكر العربى
١١	مالك بن أنس	أمين الخولى			دار الكتب الحديثه - القاهرة
١٢	فتح البارى	أحمد بن على بن حجر العسقلانى			رئاسة البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد - الرياض

" بسم الله الرحمن الرحيم "

" فهرس المصـــادر والمراجـــع "

م	اسم الكتـــاب	المؤلـــف	الطبعـة	تاريخـــا	الناشـــر
١٣	صحيح البخـارى	محمد بن اسماعيل الجعفى - البخارى			
١٤	مسند الدارمـى				
١٥	الموطـــأ	مالك بن أنس			
١٦	الكامل فى التاريخ	ابن الأثير		١٣٨٥هـ/١٩٦٥م	دار صادر للطباعة والنشر - بيروت ودار بيروت للطباعة والنشر .
١٧	التشريع والفقه فى الاسلام	مناع القطان	الثانيـة	١٤٠٢هـ/١٩٨٢م	مؤسسة الرسالة - بيروت - لبنان
١٨	أعلام الموقعين	ابن [illegible]			
١٩	شذرات الذهب	ابن [illegible]			
٢٠	حلية الأوليـاء	أبى نعيم الأصبهانى	الثانيـة	١٣٨٧هـ/١٩٦٧م	دار الكتاب العربى - بيروت
٢١	المعجم المفهرس لألفاظ الحديث			١٩٣٦م	الدكتور/أ . ى . ونسنك - مكتبة بريل فى مدينة ليدن
٢٢	تهذيب الأسماء واللغات	أبى زكريا محيى الدين النووى			دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان